رعاية الضعفاء
في الحضارة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم التصنيف: ٢٠٦

المـؤلـف : أ.د سلامة محمد الهرفي البلوي

عنوان الكتاب: رعاية الضعفاء في الحضارة الإسلامية

(نماذج مختارة)

الموضوع الرئيسي: ثقافة عامة

بيانات النـشـر: المنتدى الإسلامي

حـكـومـة الـشـارقـة

المنتدى الإسلامي

هاتف: ٠٦/ ٥٦٦٨٨٥٥ براق: ٠٦/٥٦٦٨٨٦٦

ص.ب: ٢٥٦٥٦ الشارقة: الإمارات العربية المتحدة

www.muntada.ae

رعاية الضعفاء في الحضارة الإسلامية

(نماذج مختارة)

أ.د سلامة محمد الهرفي البلوي

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية – جامعة الشارقة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

أصحاب الفضيلة والسعادة والنيافة الحضور الكريم، أحييكم بتحية ممزوجة بعبق حضارتكم المجيدة فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بادئ ذي بدء أتوجه بخالص الشكر والتقدير للقائمين على المنتدى الإسلامي بالشارقة أمينًا ومديرًا وإدارة على كريم دعوتهم لي لأتحدث إليكم، كما يطيب لي أن أثمن عاليا ما يقوم به المنتدى من جهود مخلصة في نشر العلم والثقافة الإسلامية الأصيلة القائمة على الوسطية والاعتدال، ولا أخفيكم أيها السادة أنني كلما زرت هذا المنتدى أشعر بسعادة غامرة، وأتذكر دومًا قول الفقيه ابن دقيق العيد:

ولله قوم كلما جئت زائرا ... وجدت نفوسا كلها ملئت حلما

إذا اجتمعوا جاءوا بكل طريفة ... ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

تساقوا كؤوس العلم في روضة التقى ... فكلهم من ذلك الري لا يظما

أولئك مثل الطيب كل له شذى ... ومجموعه أذكى أريجا إذا ما شما

أيها الأفاضل إن الحديث عن الحضارة الإسلامية ولمساتها الإنسانية هو حديث في الواقع عن جذور هويتنا ودعوة لوصل ما انقطع من تاريخنا، فمن لا يعرف الجذور لا يعرف ما فوق الأرض، ومن تنكر لماضيه غدا كاللقيط لا تعرف له أبا ولا أما كما قال العقاد.

إن المتأمل لكتب التراث يدهش من عظمة هذه الحضارة وكم هي فريدة في

رسالتها وسمو أهدافها، وكم أبدعت حين شملت بعطفها وحنانها ولمساتها الإنسانية كل شرائح المجتمع دون أي إقصاء أو تهميش، فمسحت دموع الأرامل والأيتام والقصر وذوي الاحتياجات الخاصة مما فجر طاقاتهم الخلاقة، فأثروا المعرفة بعلومهم وإبداعاتهم المختلفة فمن العلماء الأيتام على سبيل المثال: الإمام الشافعي والإمام أحمد والأوزاعي والبخاري وابن حجر العسقلاني وابن كثير والبيروني والكندي وابن خلدون، والقائمة تطول فضلا عن إبداعات ذوي الاحتياجات الخاصة التي حصر أسماءهم الجاحظ في كتابه: "البرصان والعرجان والعميان والحولان"، والذي منهم عطاء بن رباح، والمعري، والأعمى التطيلي وغيرهم.

أيها الحضور الكريم ستحاول هذه الورقة تسليط الضوء على رعاية الحضارة الإسلامية للفئات الآتية: المرأة، الأطفال، الأيتام، اللقطاء، الغرباء، أبناء السبيل، أصحاب العاهات والمرضى، الغارمين، السجناء، والأسرى.

ولكن قبل الحديث عن هذه الموضوعات من المناسب التذكير بالأمور الآتية:

أولا: تعتبر الحضارة الإسلامية مولودًا كريمًا للعقيدة الإسلامية وشريعتها الربانية ولا يمكن فهم أسرارها دون فهم تلك العقيدة.

ثانيا: إن الحديث عن الحضارة الإسلامية ليس مجرد تغني بالأمجاد فحسب من أجل التخدير أو الجذب للوراء، بل هو حديث ينبع من إيمان عميق بأهمية الخبرات التراكمية للأمة في دفع مسيرتها للأمام.

ثالثا: تمتاز الحضارة الإسلامية بالحيوية والاستمرار فهي إن ذبلت في مكان ترعرعت في مكان آخر.

رابعا: تعد الوحدة والتنوع من أبرز خصائص الحضارة الإسلامية، فقد ساهمت في صناعتها كل الأجناس والأعراق والطوائف والملل فضلا عن أهل الذمة بطوائفهم المختلفة.

خامسا: حضارة جعلت العلم قبل العمل، وجعلت من ربط القول بالعمل شرطا من شروط التقدم والازدهار، وأن الاقتصار على القول مظهر من مظاهر التخلف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: الآية٢-٣]

سادسا: حضارة لها قدرة عالية على الهضم وإعادة التمثيل، فقد هضمت الفنون الهندية والفارسية والتركية وغيرها وطبعتها بطابعها العربي الإسلامي، فغدا هناك الفن الإسلامي الهندي، والفارسي، والتركي... كذلك تثاقفت اللغة العربية مع اللغات الفارسية والتركية والهندية والبهاسا والكثير من اللغات الإفريقية وجعلتها تكتب بالحرف العربي، وكذا فعلت مع العلوم عند الأمم القديمة حيث ترجمتها وصححت ما فيها من أخطاء وأضافت إليها ثم أعادت إخراجها بثوب جديد.

سابعا: إن الحضارة الإسلامية حضارة مبدعة تحتفي بالمبدعين بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الدين، ولعل الناظر لكتب التراجم يرى الكثير من العلماء من مختلف الأجناس والأديان والمذاهب ممن أخذوا مكانتهم عند الخلفاء والأمراء في الدول الإسلامية المتعاقبة.

ثامنا: حضارة حفظت تراث الإنسانية فهي تمثل وعاء للخبرة البشرية، فالكثير من أصول الكتب الهندية والفارسية واليونانية والسريانية والعبرية لم يبق منها إلا أصولها العربية المترجمة.

تاسعا: حضارة ترفض العنصرية وتمجد المساواة بين البشر واحترام كرامة الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (١) وهذا سر من أسرار عظمتها واستمرارها وعالميتها.

عاشرا: حضارة تضع للأخلاق وزنا عظيما "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"(٢).

حادي عشر: حضارة جعلت من التسامح دستورا لحياتها. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).

وأخيرا يعد الحب بمفهومه الشمولي المحرك الأو ل للحضارة الإسلامية بالأمس، ولن تتحقق نهضتنا اليوم إلا به كما قال الشاعر القروي:

يا قوم هذا مسيحي يذكركم لا ينهض الشرق إلا حبنا الأخوي

أجل حين تتحول الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، يتحقق التمكين الحضاري للأمة، فقد أخرج البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير أن المصطفىﷺ قال: "**مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّى**"(٤)، وهذا ما عبر عنه الشاعر المعاصر عبد الرحمن العشماوي بقوله:

---

(١) **الإسراء: ٧٠**

(٢) صححه الألباني في "الصحيحة".

(٣) البقرة٢٥٦

(٤) **أخرج** البخاري: رقم ٥٦٦٥، ومسلم: رقم ٦٦٧٨

إذا اشتكى مسلم في الهندِ أَرّقَنِي ... وإنْ بكى مسلم في الصين أبكاني

ومِصْرُ ـ رَيحانَتِي والشامُ نَرْجَستِي ... وفي الجزيرةِ تاريخي وعُنواني

وفي العراق أَكُفّ المَجْدِ تَرْفَعُني ... على كُلّ باغٍ ومأفونٍ وخَوّانِ

ويسمعُ اليَمَنُ المحبوبُ أُغنيَتِي ... فيستريحُ إلى شَدْوِي وألحاني

ويسْكنُ المسجدُ الأقصى وقُبّتُهُ ... في حَبّةِ القلبِ أرعاهُ ويرعاني

أرى بُخارى بلادي وهي نائية ... وأستريحُ إلى ذكرى خُراسانِ

شريعةُ اللهِ لَمّتْ شَمْلَنا وبَنَتْ ... لنا مَعالِمَ إحسانٍ وإيمانِ

إن رسالة الإسلام الحضارية أحدثت انقلابا في المفاهيم الجاهلية التي كانت لا تحترم إلا الأقوياء، وبالتالي نظرت إلى الفئات الضعيفة في المجتمع نظرة ازدراء واحتقار، فعاشت تلك الفئات مهمشة بائسة حزينة تشعر بالإحباط، فجاء الإسلام وأعاد إليها اعتبارها وإنسانيتها، وأخذ بيدها لتواصل مشوارها في الحياة في جو مفعم بالحب والرحمة ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

لقد نظرت الحضارة الإسلامية للفئات الضعيفة في المجتمع من: أصحاب العاهات، واللقطاء، وكبار السن، والزمنى والأرامل والأيتام وغيرهم ممن عجز عن الكسب نظرة تقدير واحترام تنبع من الأساس الذي قامت عليه الحضارة

(١) يونس، آية ١٢٨.

الإسلامية، وهو تكريم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١]، وهذا التكريم اقتضى عدم إهمال أي شريحة من شرائح المجتمع مهما كان وضعها، لذا نجدها تقدم برامجها الإنسانية للأخذ بأيدي هذه الفئات، لإعادة تأهيلها لمواصلة مسيرتها في خدمة الأمة، خاصة أن قطاعاً كبيراً من هذه الفئات الخاصة لديه طاقات مذخورة لا ينبغي الاستهانة بها في دفع المسيرة الحضارية للأمة.

إن الدستور الحضاري الإسلامي الخالد (القرآن والسنة) لم يترك أمر الفئات الضعيفة للاجتهادات الفردية، بل نص بكل وضوح على ضرورة العناية بها ديانة وإنسانية، واعتبر الاحتفاء بها ورعايتها من الطرق الموصلة إلى مرضاة الله ورسوله، ودخول الجنة، فنصت عشرات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على واجب رعاية هذه الفئات رعاية شمولية من خلال دمجهم في المجتمع ومعاملتهم على قدم المساواة مع غيرهم من عناصر المجتمع.

إن اِلتفات الحضارة الإسلامية لهذه الشرائح الاجتماعية يعد دليلا من الأدلة الكثيرة على عظمة هذه الحضارة وحرصها على توفير السعادة لجميع شرائح المجتمع ضمن عدالة مطلقة تقضي على كل بؤر التوتر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وقد صدق الكاتب الإيرلندي الشهير برنارد شو حين أكد على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ومقدرته على حل أعقد المشاكل بكل سهولة ويسر حين قال: "أعتقد أن رجلا كمحمد لو يُسلّم زمام الحكم في العالم بأجمعه، لتم النجاح في حكمة، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل

(١) سورة الإسراء آية ٧٠.

للعالم السلام والسعادة المنشودة "[١].

ولنا أن نقدر عظمة الحضارة الإسلامية عندما نعلم أن حضارتنا المعاصرة لم تلتفت لرعاية هذه الشريحة الاجتماعية إلا في فترة متأخرة جدا، ورغم صدور العديد من القوانين والتشريعات في العديد من الدول المتقدمة لصالح الفئات الضعيفة ، إلا أنها ما زالت دون المستوى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية، والسبب في ذلك أن الحضارة الإسلامية ربطت ما بين هذه الرعاية وبين الدين، فغدا حب هذه الفئات وخدمتها ينطلق من دافع إيماني، جعل أفراد المجتمع من حكام ومحكومين يتسابقون في تقديم المساعدات لهذه الفئات، ليس من باب الشفقة والمنة، بل من باب الواجب المقدس المفروض على المسلم، بينما نجد هذه الخدمات في الغرب تقدم مجردة خالية من الروح، وبالتالي نجد الابن لا يجد بأسا حين يدفع والديه إلى أحد الملاجئ للتخلص من عبء النفقة والعنايه بهما، على العكس تماما مما هو كائن في حضارتنا الإسلامية التي جعلت من عقوق الوالدين والتخلص من رعايتهما كبيرة من الكبائر، لا بل إن هذه النظرة الراقية للوالدين حرّمت على الابن أن يجرح شعورهما ولو بكلمة أف، فقال جل من قائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا

(١) الإسلام والحضارة أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في الرياض بتاريخ ٢٠ من ربيع الثاني عام ١٣٩٩هـ/١٨ مارس عام ١٩٧٩م، جـ٢، ص٢١٨.

جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١).

إن هذه الورقة أيها السادة لا تعدو أن تكون قبسا من نور حضارتنا الوهاج، الذي يصعب على هذه الوريقات أن تتبع مدى إشراقاته وآثاره في مختلف الأزمان والأصقاع، ولعل ما يشفع لها أنها تحمل في طياتها دعوة مخلصة لإعادة النظر في أولويات البحث في التاريخ الإسلامي والحضارة التي تمثله في وقت تتلاطم فيه الأفكار والفلسفات، وتتزاحم فيه الحضارات مع ارتفاع بعض الأصوات التي تدعو إلى الهيمنة والاستحواذ والإلغاء والإقصاء للآخر؛ لذا فإن مهمة علماء الأمة تقتضي أن يعمل كل في حقله من أجل تجذير وتمتين الانتماء لدى أبناء الأمة وتنمية الاعتزاز لديهم بماضيهم المجيد، والعمل على مواصلة ما انقطع منه من خلال عقلية متفتحة تؤمن بمبدأ الأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر، وبأن الحق ضالة المؤمن أنّا وجده أخذه، وبأن استيعاب واستنطاق وتفعيل الماضي هو الطريق الأمثل لفهم الحاضر والتخطيط المبصر للمستقبل والسبيل الأقوم لبناء حضارة راشدة ومميزة.

(١) الإسراء، آية ٢٣-٢٤.

أولاً: رعاية الحضارة الإسلامية للمرأة

لقد قدمت الحضارة الإسلامية للمرأة كل مقومات وضمانات الحياة الكريمة المستقرة، فصححت الأوضاع الجائرة التي عانت منها المرأة عبر العصور حيث قضت على مبدأ التمييز العنصري بين الرجل والمرأة، ومنحتها الحقوق المادية والروحية، ما رفع مكانتها إلى مرتبة لم تصل إلى مثلها بعد أرقى الأمم المعاصرة.

ومن المعلوم أن من الحقائق الكبرى التي قررها الدستور الحضاري الإسلامي، أنه أعطى للمرأة أهلية تامة وحقا كاملا غير مقيد بأي قيد، عدا ما حرم الله ورسوله على جميع المسلمين في جميع التصرفات المدنية والاقتصادية والشخصية، حيث جعل لها الحق والأهلية لحيازة المال مهما عظم مقداره، والإرث، والهبة، والوصية، وتملك العقار، والتعاقد، والكسب، والمصالحة، والتقاضي، والتصرف فيما يصل إلى يدها من مال، كما أباح لها إدارة أموالها والإشراف على مختلف الشؤون الاقتصادية.

إن التشريعات الإسلامية منحت المرأة شخصيتها الاعتبارية المستقلة عن شخصية زوجها، فلا يجوز للزوج أن يأخذ شيئا من مالها قل ذلك الشيء أو كثر إلا بإذنها. علما بأن المرأة في فرنسا - على سبيل المثال – وهي معقل الحرية، ومنبع حقوق الإنسان، ورافعة شعار الحرية والمساواة كانت ولا تزال في كثير من الشؤون المدنية غير قادرة على التصرف في ملكيتها؛ إذ تقرر المادة السابعة عشرة بعد المائة في الدستور الفرنسي: أن المرأة المتزوجة حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل

ملكيتها ولا أن تملك بعوض أو غير عوض من دون إشراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية[١].

لقد كفلت التشريعات الحضارية الإسلامية حق المرأة بالاحتفاظ باسمها ونسبها بعد الزواج، فعائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- بقيت تسمى عائشة بنت أبي بكر بعد زواجها من المصطفى -صلى الله عليه وسلم -، ولم تنسب لزوجها سيد الخلق محمد -صلى الله عليه وسلم-، وذلك على خلاف ما يحدث في دول كثيرة في العالم من خلع اسم أسرة الزوج على زوجته، وبالتالي تتناسى اسم أبيها وأسرتها من الناحية الاعتبارية.

إن من أبرز معالم اهتمام الحضارة الإسلامية بالمرأة والرفع من شأنها والأخذ بيدها لتكون عنصرا فاعلا في البناء الحضاري للأمة، أنها حرصت كل الحرص على صون كرامتها من خلال محاربة فقرها، ومنع الرجال من اضطهادها، فتداعت الأمة استجابة لنداء ربها وتوجيهات نبيها بتلمس حاجة المرأة وسدها عبر أعمال اجتماعية تهدف إلى طلب الأجر والثواب خاصة تلك الأعمال التي استهدفت تلك النساء اللواتي فقدن المعيل، أو تقدم بهن السن، أو اللائي لسبب من الأسباب أصبحن بحاجة إلى مساعدة.

ولعل المتأمل للمؤلفات التي أفردت للمرأة في حضارتنا الإسلامية يلمس عظم هذه العناية التي أولتها للمرأة، فقد خصص عدد لابأس به من العلماء والأدباء والمؤرخين مؤلفات تتحدث عن إسهامات المرأة في مختلف الحقول من

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: زينب رضوان: المرأة في المنظور الإسلامي.

خلال إفراد مؤلفات أو تخصيص أبواب و فصول لتراجم النساء، والتي منها على سبيل المثال لا الحصر: ما قام به محمد بن سعد تلميذ الواقدي من تخصيص قسم مستقل في طبقاته الكبرى للنساء، وكذلك حذا حذوه المؤرخ خليفة بن خياط في طبقاته، وترجم ابن أبي حاتم لبعض المحدثات في أواخر كتابه "الجرح والتعديل"، وذيل الخطيب البغدادي تاريخه المسمى "تاريخ بغداد" بتراجم النساء، وأنهى ابن عبد البر كتابه "الاستيعاب" بتراجم النساء الصحابيات، وتابعه في ذلك ابن الأثير في "أسد الغابة" وابن حجر العسقلاني في "الإصابة"، و"تهذيب التهذيب"، و"لسان الميزان"، والحافظ المزي في "التهذيب"، والذهبي في "ميزان الاعتدل".

وترجم تقي الدين محمد بن أحمد المكي في نهاية "العقد الثمين" لـ (٢٥٠ امرأة) من شهيرات المكيات، وترجم الذهبي في "سير أعلام النبلاء" للنساء والرجال، وسار على هذا النهج ابن كثير في "البداية والنهاية".

وتخصص ابن عساكر بنساء دمشق ومن ورد عليها، فترجم لـ(١٩٦) امرأة. اما ابن قتيبة فأفرد جزءاً من كتابه "عيون الأخبار" للنساء سماه: كتاب النساء في أخلاقهن وقلقهن، وسار على هديه ابن عبد ربه في "العقد الفريد" حين جعل قسما خاصا منه لأخبار النساء سماه "كتاب المرجانة الثانية" ...

ويندر أن يخلو مصدر من مصادر تراثنا من الحديث عن المرأة أو الإشارة إلى جانب من جوانب نشاطاتها، وكل ذلك يمثل اعترافا بدورها وتوثيقا ورصدا لإسهاماتها في خدمة الأمة بعدما حررها الإسلام من الذل والعبودية، فتفجرت طاقاتها، وأخذت تمارس دورها وهي رافعة الرأس جنبا إلى جنب مع الرجل.

فقد أكدت التشريعات الإسلامية بأن دورها إن لم يزد لا يقلّ عن دور الرجل في البناء الحضاري، فالنساء شقائق الرجال، وكل على ثغرة من ثغر الإسلام ومطلوب منه حراسة الثغرة المكلف بحراستها، فضلا عن تقديم المرأة على الرجل في البر من قبل الأبناء من خلال الكثير من الوصايا القرآنية والنبوية والتي منها قوله تعالى في تذكير الأبناء بما ذاقته الأم من آلام الحمل والوضع، وما عانته وكابدته أثناء تربيتهم حتى صاروا شبابا أقوياء ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[2].

لقد أفرد القرآن الكريم مساحة لا بأس بها لحقوق وواجبات المرأة، لا بل أطلق اسم المجادلة على سورة من سوره، والنساء على سورة أخرى، كما أكد على تكريمها من خلال قرنه الإحسان إليها بعبادة الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

وفي السنة المطهرة الكثير من التوجيهات والوصايا المتعلقة بالأمهات اللائي جعلت الجنة تحت أقدامهن، وحسبك أن المصطفى ﷺ يكرر الوصية بالأم ثلاث مرات، عندما جاء أحد الصحابة وسأله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟

---

(١) لقمان، آية ١٤.

(٢) الاسراء، آية ٢٣-٢٤.

فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: "**أمك**"، قال: ثم من؟ قال: "**أمك**"، قال: ثم من؟ قال: "**أمك**"، قال: ثم من؟ قال: "**أبوك**"(١).

وجاء رجل آخر إلى النبي ﷺ، وقال: أريد الجهاد في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام: "**أأمك حية؟**" قال: نعم، قال: "**فالزمها، فإن عند رجلها الجنة**"(٢). وفي روايه أخرى قال له: "**أحيٌّ والداك؟**" قال: نعم، قال: "**ففيهما فجاهد**"(٣).

والمتأمل للسنة القولية والعلمية للمصطفى ﷺ يجد العديد من التوجيهات لإكرام المرأة والعناية بتربيتها ورعايتها، وما يترتب على ذلك من أجر وثواب عظيم، فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "**مَنْ وُلِدَ لَهُ ابنة فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا - يَعْنِي الذُّكُورَ - أَدْخَلَهُ اللَّه بِهَا الْجَنَّةَ**"(٤).

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جـ٢، ص٣٢٩.

(٢) أحمد: المسند، جـ٢، ص٦٤، جـ٣، ص٤٢٩، الترمذي رقم ١٦٧١ ؛ الحاكم: المستدرك، جـ٤، ص١٥٥.

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جـ٢، ص٣٢٩.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (عون المعبود، حـ ١٤، ص ٥٥) كتاب الأدب، باب فضل من عال يتامى؛ أحمد بن حنبل: المسند، حـ١، ص ٢٢٣ ؛ الحاكم: المستدرك، حـ٤، ص ٣٧٧.
وجاء في حديث آخر: "من كان له ثلاث بنات فعالهن وكفلهن دخل الجنة، قلنا: واثنتين؟ قال: واثنتين، قلنا: وواحدة؟ قال: وواحدة". وفي حديث آخر "من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار".
ومن الأمور المقررة: أن الابتلاء يكون بالخير كما يكون في الشر يقول تعالى (**ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون**) الأنبياء، آية ٣٥. لمزيد من التفصيل عن الأحاديث الواردة في فضل البنات انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان، حـ٢، ص ٣٤٣.

وكوسيلة إيضاح عملية للأمة ودفعها للاقتداء به في إكرام البنات، كان عليه أفضل الصلاة والسلام في بعض الأحيان يؤم المسلمين وهو حامل حفيدته أمامة بنت زينب، فإذا ركع وضعها، فإذا قام رفعها [١].

وهكذا لا يستطيع المنصف بعد تأمله للشواهد السابقة إلا أن يقدر للحضارة الإسلامية ما قدمته للمرأة من لمسات إنسانية نقلتها من العبودية إلى الحرية والمساواة، ومن عنصر يعيش على هامش المجتمع إلى عنصر فاعل ومؤثرة فيه.

ولعل من أبرز ما يسجل للحضارة الإسلامية بأنها استنفرت الأمة من أجل توفير العيش الكريم للمرأة ومحاربة كل ما من شأنه أن ينتقص من حقوقها أو يحول دون استمتاعها بحياتها، فالناظر إلى تاريخ الوقف الخاص بالمرأة يجد الأدلة والبراهين على ما تقدم، والتي منها على سبيل المثال:

أ- تزويج وتجهيز البنات الفقيرات

إن من معالم عظمة الحضارة الإسلامية، أنها حضارة الرحمة، والحب والسلام والعدالة والسعادة، فقد كفلت لجميع من ينضوي تحت لوائها الحياة الكريمة، والعدالة الشاملة، فنجدها تتلمس حاجات الأفراد فتسدها، وتسعى جاهدة على إدخال البهجة والسرور للقلوب، خاصة تلك الفئات التي عجزت لضيق ذات اليد عن توفير نفقات الزواج والظهور بالمظهر المناسب في هذه المناسبة الهامة والسعيدة في حياة العروسين، لذا نجد أن الأيادي الرحيمة في الحضارة الإسلامية تسارع

(١) رواه البخاري في الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيره على عنقه في الصلاة، حـ١، ص ١٣٠؛ مسلم في الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة رقم ٥٤٣.

لتقديم العون لهذه الشريحة لتفرح في يوم زواجها، لا بل نجد أن الدولة الإسلامية تصدر المراسيم التي تلزم الدولة بنفقات زواج الفقراء المنضوين تحتها.

ولعل الأوامر التي أصدرها الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) إلى واليه على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن بهذا الشأن خير دليل وشاهد على حرص حكام المسلمين على رعاية الشباب الفقراء في الدولة الإسلامية، لما يترتب على عجزهم عن الزواج من مفاسد اجتماعية تهدد الأمن الاجتماعي للأمة، فقد جاء توجيهه لواليه: "أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه، وأصدق عنه". فكتب إليه إني قد زوجت كل من وجدت[١].

ولم يكتف هذا الخليفة العادل بذلك بل طلب أن ينادى في كل مصر في كل يوم: أين المساكين، أين الغارمون، أين الناكحون؟[٢].

وقد قرر الفقهاء منذ فترة مبكرة أن الالتزامات الإنسانية على الأمة التكفل بتزويج الفقراء في المجتمع[٣].

ويحدثنا الرحالة الشهير ابن بطوطة: أنه كان في مدينة دمشق أوقاف خاصة لتجهيز البنات إلى أزواجهن ممن لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن[٤]. كما وجد في فلسطين أوقاف مخصصة لتوفير مهور للفتيات اليتيمات كي يتسنى لهن الزواج[٥].

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، ص٣٤١ ؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٣٧٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٩، ص٢٢٠.

(٣) منصور بن يونس البهوتي: الروض المربع، حاشية عبد العزيز العنقري، ص٤٠٠.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص٥٥.

(٥) مايكل دمبر، سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين، ص١٩.

وحتى يتسنى للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة رائعة وتظهر عروسه بأجمل مظهر، وحتى لا تنكسر مشاعرها في ليلة فرحها لضيق ذات يدها وعدم قدرتها على شراء الزينة التي ترغب فيها، وَجِدَ في أكثر بلدان العالم الإسلامي وقفا لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والمناسبات السعيدة، بحيث أن العامة والفقراء ينتفعون بهذا الوقف الخيري، فيستعيرون منه ما يلزم من الحلي لأجل التزين في المناسبات العامة، ومن ثم يعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها[١]. فقد وجد على سبيل المثال في مدينة تطوان المغربية وقف لأسرة بلحاج خاص بزينة العروس ولباسها[٢]. علما بأن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵂ كانت قد ابتاعت حلياً بعشرين ألفاً فحبسته على نساء آل الخطاب، فكانت لا تخرج زكاته فهو أول وقف في الإسلام من هذا النوع.

وكانت ملكة الهند المسلمة نورجهان تساعد المحتاجين وتزوج الأيتام، وتدفع المهور عنهم، وكانت أول من أنشأت سوقا خيرية أطلقت عليها اسم (سوق الشفقة)، يذهب ريعه لخدمة الفقراء وتزويج الأيتام، وقد بقيت هذه الملكة تمارس هذه الخدمة الجليلة حتى انتقل زوجها (عام١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م) إلى الرفيق الأعلى، حيث اعتزلت الحكم ثم توفيت بعد قليل، ودفنت إلى جانبه في حديقة سليمان[٣]. وكانت الأميرة عزيزة بنت أحمد بن محمد بن عثمان

(١) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص٦٣٦.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله، معطيات الحضارة المغربية، جـ٢، ص٣٣-٣٤.

(٣) عبد البديع صقر: نساء فاضلات، ص١١٧-١١٨.

(ت١٠٨٠هـ/١٦٦٩م)[١] محبة للضعفاء والمساكين، فأوقفت الأوقاف الخيرية الكثيرة في تونس، منها ما هو مخصص لتجهيز الأبكار اللائي يثقلهن الفقر ويحول دون زواجهن صيانة لهن عن الابتذال وترغيبا في الزواج بهن[٢].

أما أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوج الخليفة الأموي الشهير الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) فكانت قد سبقت ملكة الهند بقرون في التنبه لدور سيدات المجتمع في خدمة النساء الفقيرات فقد كانت تدعو النساء وتكسوهن الثياب الحسنة، وتعطيهن الدنانير وتقول لهن: الكسوة لكُنَّ، والدنانير قسمنها بين فقيراتكن[٣].

ومن أجل مساعدة المرأة على القيام بوظيفة الأمومة على أكمل وجه، وجدت أوقافا للنساء المرضعات، تسمى (أوقاف نقطة الحليب)، يوزع منها الحليب على النساء المرضعات في أيام محددة في كل أسبوع إلى جانب الماء المذاب فيه السكر، فقد كان من مبرات القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزاب يسيل منه الحليب، وميزاب يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات المرضعات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر[٤].

---

(١) نشأت في بيت إمارة وكرم في تونس، زوجها والدها من حموده باشا المرادي انظر: عمر رضا كحالة، المرأة في عالمي العرب والإسلامي، جـ٢، ص١٠٤.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٣) ابن الجوزي: صفة الصفوة، جـ٤، ص٤٩٨.

(٤) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص٩٨-٩٩.

فانظر لهذه اللمسات الإنسانية السامية التي لم يحدثنا التاريخ بمثلها.

ب: رعاية الأرامل

لقد كان الرجال دوما هم وقود الحروب والصراعات منذ وجد الإنسان على هذا الكوكب، وكانت المرأة التي فقدت زوجها أبرز المتضررين، إذ كانت تتحول بعد فقدها زوجها في معظم المجتمعات القديمة إلى عنصر غير مرغوب فيه في المجتمع، فتارة تورث كما يورث المتاع، وتارة تتحول إلى سبية من السبايا منقوصة الحقوق والكرامة، لذا نجدها في بعض المجتمعات الآسيوية (الهند، الصين، جنوب شرق آسيا) تؤثر الانتحار عن طريق شنق أو حرق نفسها لتعجيل اللحاق بزوجها في وسط إعجاب وبهجة المحيطين بها.

لقد جعلت التشريعات الإسلامية من ضمن أولوياتها المحافظة على كرامة هذه الشريحة الاجتماعية (الأرامل) فتكفلت بتغيير نظرة المجتمع إليها، فضلا عن توفير العيش الكريم لها، وإحاطتها بالعطف والحنان للتخفيف من مصيبتها بفقد زوجها، بل ذهبت إلى أبعد من هذا، حين جعلت من خدمة هذه الشريحة قربة من القربات العظيمة تتساوى مع أجر المجاهد في سبيل الله، وأجر من واظب على قيام الليل وصيام النهار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**الساعي على الأرملة**[1] **والمسكين كالمجاهد في سبيل الله،**

(١) الأرامل جمع أرملة وهو من افتقر وفنى زاده وهو يقع على الذكور والإناث، وفي الإصطلاح: هي المرأه التي لا زوج لها، وسميت ذلك لإفتقارها لمن ينفق عليها، قال الازهري: لا يقال لها أرملة إلا إذا كانت فقيرة، فإذا كانت موسرة فليست بأرملة، انظر الزمخشري: أساس البلاغة، ص١٧٩؛ أحمد بن محمد بن علي المقري: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، جـ١، ص٢٥٧.

أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل"[١].

ولم يكتف المصطفى ﷺ بالتوجيه القولي بل قام بكفالة بعض أبناء وأرامل المسلمين الذين استشهدوا في حركة الجهاد، فقد جاء في البخاري ومسند الإمام أحمد أنه بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة (٨هـ/٦٢٩م)، جاءت زوجته أسماء بنت عميس إلى رسول الله ﷺ بولديها عبدالله ومحمد ابني جعفر، وجعلت تذكر ترملها ويتم ابنيها، فقال النبي ﷺ: "**العَيْلةَ تخافين عليهم، وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة** "[٢].

وانطلاقا من هذا التوجيه النبوي الشريف أخذت الأمة تعمل على إيجاد آليات لتجسيد رعاية الأرامل في الواقع الملموس من خلال حركة اجتماعية مؤسسية تقوم على مبدأ التكافل الاجتماعي، لمساعدة هذه الشريحة في المجتمع لمواصلة مشوارها في الإسهام في بناء الحضارة الإسلامية، وقد كان حكام الدولة الإسلامية على رأس الرواد في مباشرة هذا العمل الاجتماعي السامي، فهذا

---

(١) البخاري جـ٨، ص١١، ١٨١ الأدب باب ٢٥، حديث رقم ٥٦٦٠ وفي النفقات، جـ٨، ص٨٠، مسلم ٥٣ الزهد والرقائق باب الإحسان على الأرامل حديث ٢٩٨٢ ؛ النووي: شرح صحيح مسلم، جـ١، ص٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، جـ ١٣، ص٤٩٦.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأدب باب: الساعي على الأرملة، حديث رقم ٥٦٦٠أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٢٠٤ ؛ وصدق أبو طالب حين مدح المصطفى ﷺ.

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمالُ اليتامى عصمة للأرامل

انظر البيت السابق في: ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص١٤ ؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، جـ٨، ص٢٧٥؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ٢ ص٥٧٦.

الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كان يخطط قبل اغتياله لتقديم إعانة دائمة للأرامل، إلا أن استشهاده حال دون تحقيقه لهذا الهدف في حياته، فعن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ قبل أن يصاب بأيام بالمدينة يقول: "لئن سلَّمَنِيَ اللهُ لأَدَعَنَّ أرامِلَ أهلِ العراقِ لا يحتَجْنَ إلى رجُلٍ بعدي أبدًا"(١).

وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد بدأ بتقديم المعونات للأرامل في المدينة المنورة، فقد أخرج البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارا، والله ما ينضجون كراعا، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ، فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحبا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطا في الدار فحمل عليه غرارين ملأهما طعاما وحمل بينها نفقة وثيابا، ثم ناولها خطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكْثَرْتَ لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنا زمانا فافتتحاه(٢).

ويُعَدُّ الصحابي الجليل الزبير بن العوام ﷺ (ت٣٦هـ/٦٥٦م) أول من أوقف وقفا لصالح الأرامل والمطلقات من بناته، فقد جاء في صيغة وقفه لبعض دوره

(١) البخاري: ٦٦، فضائل الصحابة، باب ٨ حديث رقم ٣٤٩٧؛ يحيى بن آدم القرشي: الخراج، ص٧٦.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص٥١٠.

"وللمردودة من بناته أن تسكن غير مضرة ولا مضر بها"[١].

وكان القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي يدرك بأن توفير الأمن الاجتماعي لهذه الشريحة (الأرامل) من العوامل المهمة لتحصين الجبهة الداخلية، وبالتالي تحقيق النصر في الجبهات الخارجية، فعندما يعلم الجندي أن زوجه وأطفاله بعد استشهاده سوف يعيشون حياة كريمة، يزداد حماسا في جهاده، وتقل توتراته النفسية التي هي من طبيعة النفس البشرية – حين يتوجه لجبهات القتال، لذا نجد صلاح الدين يوقف الأوقاف الكثيرة لخدمة الأرامل والأيتام والتي منها على سبيل المثال: قرية نسترو بين دمياط والاسكندرية والتي كانت قيمة ضمانها خمسون ألف دينار[٢].

وقد تطور العمل الاجتماعي في الحضارة الإسلامية لخدمة هذه الشريحة الاجتماعية إلى درجة إنشاء مؤسسات اجتماعية متخصصة لرعاية الأرامل والنساء المطلقات، أو اللواتي هجرن من قبل أزواجهن، أو اللواتي تقدم بهن السن وليس لهن من ينفق عليهن، وكانت رائدة هذه اللمسات الإنسانية السيدة تذكار خاتون ابنة الظاهر بيبرس التي شيدت في عام (٦٨٤هـ/١٢٥٨م) رباط البغدادية للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات، المعروفة ببنت البغدادية، وأنزلت معها فيه مجموعة من النساء، وظل هذا الرباط قائما إلى زمن المؤرخ المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٥-١٤٤١م)، الذي أوضح بأن لهذا الرباط شيخة تَعِظ

(١) البخاري بهامش الفتح، جـ٥، ص٢٦٤ ؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٦، ص١٦٥.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، ص٧٧.

النساء وتُفَقِّهُهُنّ ، على أن أهم من هذا قوله: "وأدركنا هذا الرباط، وتودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن، صيانة لهن، كما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات... حتى إن خادمة الفقيرات... تؤدِّب من خرج عن الطريق بما تراه"[١].

ولعل في هذا النص من المعاني ما يؤكد أن خدمة هذه الشريحة الاجتماعية أصبح يقدم من خلال مؤسسات لها وظيفتها الاجتماعية والتربوية التي كانت محل ثناء علماء الأمة.

ويبدو أن فكرة إنشاء مؤسسة خاصة لرعاية النساء من الفئات الخاصة بمصطلح اليوم انتشرت في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية على مر فترات التاريخ الإسلامي، فكان هناك على سبيل المثال رباطا مخصصا للنساء والعجائز في بغداد[٢] ومثله في مصر للأرامل والعجائز[٣]، فضلا عن النساء المطلقات أو اللائي هجرن من أزواجهن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن[٤].

وفي القرافة بمصر عدة دور يقال للدار منها "رباط" لإقامة العجائز والأرامل والمنقطعات، وكانت لها مرتبات للصرف على المقيمات بها، وكان لهن مجالس وعظ مشهورة، وكان يختار لهذه الربط سيدات مثقفات لتهذيب وتعليم

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٢٨.

(٢) المصدر السابق تفسه، جـ٢، ص٤٢٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، جـ٢، ص٤٥٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، جـ٢، ٤٢٨.

المقيمات فيه، منهن الشيخة زينب بنت عباس البغدادية والتي كانت تحضر مجالس ابن تيمية، وكان يستعد لها لكثرة مسائلها[١].

أما فاطمة بنت الملك العادل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب فقد أوقفت دارا للفقيرات عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ينفق عليها وعلى المقيمات فيها من أوقاف خصص ريعها لخدمة هذا الهدف[٢].

وقد نص على سبيل المثال إسماعيل بك رفعت في وقفيته التي أنشأها بالقاهرة بتاريخ ١٦ جمادى الأول ٨٦٧هـ/١٢٨٤م: أن النسوة العجائز الفقيرات والعاجزات عن الكسب الخاليات من الأزواج اللائي يقمن في الرباط الذي أنشأه بباب الخلق بالقاهرة، تعطى كل واحدة في شهر رمضان في كل سنة اثنا عشر ذراعا من العبك (نوع من القماش) وست أذرع من الشاش، وحردة بلدي[٣].

أما في المغرب الأقصى، فقد عرفت مدينة مراكش وقفية فريدة في رسالتها الاجتماعية أطلق عليها اسم (دار الدقة) وهو عبارة عن ملجأ مخصص للنساء اللائي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن، وليس لهن أهل، فلهن أن يقمن في الدار، آكلات شاربات، إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور، وكان على (دار الدقة) هذه أوقاف عديدة تدر أموالا لتغطية نفقاتها[٤] لتواصل القيام بدورها

(١) محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ص١٦٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص١٦٥-١٦٦.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحات.

(٤) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص٣٢٧.

الاجتماعي الهام، والذي يدل على سمو الحس الاجتماعي في الحضارة الإسلامية، التي لم تترك أحدا إلا وشملته بلمساتها الإنسانية الراقية، والتي تحول دون انتشار المظالم والمفاسد الاجتماعية في المجتمع، فهذه الدار كما يبدو من اسمها (دار الدقة) تأخذ على يد الزوج الظالم لزوجته حتى يرجع لرشده، وبعد أن يبصر بحقوق زوجه عليه تعود إليه زوجه ليواصلا مشوارهما في مسيرة الحياة بنفس سوية وتوافق اجتماعي يسهم في البناء الحضاري للأمة.

ويذكر أنه كان في مدينة فاس ملجأ خاص بالنساء الشريفات الفقيرات، ويتكون هذا الملجأ من دارين تقع إحداهما في الماشطين قرب ساحة الصفارين والأخرى في وادي الرشاشة جوار دار عديل[١]، وقد استمرت العناية بهذه الفئة من المجتمع في أحلك الفترات التي كانت تمر بها الحضارة الإسلامية، فها هو آخر خلفاء الدولة العباسية المستعصم والذي قتل على يد التتار سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) يوقف دارا لرعاية النساء المسنات رغم ما كان يتهدد الدولة من مخاطر التتار[٢].

وهكذا تبلورت التوجيهات النبوية بشأن هذه االشريحة الاجتماعية إلى عمل اجتماعي مؤسسي ينفق عليه من ريع الأوقاف التي أوقفها أهل الخير لهذه الغاية النبيلة.

---

(١) رقية بلمقدم: أوقاف مكناس في عهد مولاي إسماعيل (١٠٨٢-١١٣٩هـ/١٦٧٢-١٧٢٧م)، جـ١، ص٦٢.

(٢) ابن الفوطي، عبد الرزاق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ص٢٧٤.

ثانيًا: رعاية الطفولة المحرومة

- رعاية اللقطاء

إن المتأمل لصفحات تراثنا الحضاري المعمور والمسطور يلاحظ أن يد الإسلام الرحيمة لم تترك شريحة من شرائح المجتمع تتألم إلا وسارعت بالامتداد إليها لتمسح دموعها وتخفف من آلامها، وتحاول دمل جراحاتها النفسية لتواصل مشوار حياتها، وأخذ دورها في دفع عجلة الحضارة الإسلامية إلى الأمام، ولعل تسليط الضوء على رعاية الحضارة الإسلامية للّقطاء[1] ممن أبصروا النور من دون اسم أو نسب أو هوية يقدم الدليل الساطع على سمو ورقي هذه الحضارة.

لقد انطلقت الرعاية الاجتماعية للّقطاء في الحضارة الإسلامية من منطلق أن كرامة الإنسان مصونه، ومن منطلق أن اللقيط لا ذنب له، ومن حقه العيش بكرامة، وأن إهماله يؤدي إلى تفشي العديد من الأمراض الاجتماعية الفتاكة التي تهدد أمن المجتمع، لذا نجد علماء الأمة وعلى رأسهم الفقهاء يتصدون لدراسة هذه الظاهرة، ويفردون لها مساحة واسعة من دراساتهم التي ركزت في معظمها على الإجراءات والخطوات التي تساعد اللقيط على الانخراط في المجتمع والاندماج فيه بنفس سوية وشخصية متوازنة لا تشعر بالدونية أو الظلم الاجتماعي، لهذا نص الفقهاء على أن رعاية اللقيط واجب مقدس على

---

(١) يطلق لفظ اللقيط في اللغة والاصطلاح الفقهي على الطفل الذي طرحه أهله على قارعة الطريق لسبب من الأسباب، وغدا مجهول الأبوين والنسب. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن منظور: لسان العرب، حـ٧، ص ٣٩٢ (مادة لقط) ؛ النووي: المجموع شرح المهذب، حـ٥، ص٢٨٥ ؛ السرخسي: المبسوط، حـ١٠، ص٢٠٩.

الأمة، فإن لم تقم به وقعت في الإثم، لا بل وصل الأمر إلى إعلان الحرب على من يرفض رعايته فقالوا: "إن من وجد صغيرا منبوذا، فَفَرْضٌ على من بحضرته أن يقوم به... ولا إثم أعظم من إثم من أضاع نسمة لا ذنب لها حتى تموت جوعا أو بردا أو تأكلها الكلاب، وهو قاتل نفس عمدا لا شك[١].

وإن امتنع أهل القرية أو البلدة عن أن ينفقوا على اللقيط وجب على الإمام قتالهم[٢] لأنهم تقاعسوا عن القيام بواجبهم الاجتماعي المقدس الذي كلفهم به الشارع، فالقاعدة تقول: إنه من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، يقول الله تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾[٣].

إن إهمال هذه الفئة الاجتماعية (اللقطاء) يعني فتح باب مفسدة عظيمة على المجتمع ومخالفة صريحة لروح الحضارة الإسلامية التي جاءت رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤]. وقد صح عن النبي ﷺ قوله: "**من لا يرحم لا يرحم**"[٥]. وعليه فقد نص الفقهاء على إلزام الدولة بالإنفاق على اللقيط، وإن

---

(١) ابن حزم: المحلى حـ٥، ص ٢٧٣؛ النووي: المجموع، حـ ١٥، ص٢٥٨- ٢٩١.

(٢) النووي: المصدر السابق، حـ١٥، ص ٢٩١.

(٣) المائدة، آية ٣٢.

(٤) الأنبياء، آية ١٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب باب رحمة الولد، جـ٨، ص٩ ؛ مسلم في الفضائل، باب رحمة الصبيان برقم ٢٣١٨.

عز ذلك كلفت مجموعة تعاونية بمساعدة الدولة للإشراف على الإنفاق عليه، قال الإمام النووي رحمه الله: "وعموما فإن لم يكن للقيط مالٌ يُنفقُ عليه من بيت المال... يعين الحاكم جماعة يتعاونون في الإنفاق عليه..." استنادا لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(١).

حقوق اللقيط في الإسلام:

لقد وجه القرآن الكريم أنظار الأمة الإسلامية إلى أهمية رعاية اللقيط من خلال أسلوبه المشوق لشد الانتباه وتحفيز العقول لإعمال الفكر في المثال الذي ساقه القرآن من خلال تصوير حياة نبي عظيم هو موسى عليه السلام، إذ أن أمه وضعته في صندوق ومن ثم ألقته في اليم خوفا من بطش فرعون(٢)، فالتقطه

---

(١) المائدة، آية ٢؛ ويدخل في حكم اللقيط ولد اللعان (اللعان في اللغة الطرد والإبعاد، وفي الشرع: قذف الرجل زوجته في الزنا) حيث يحلف كل منهما الشهادات المنصوص عليها شرعا، ويفرق الإمام بينهما بعد هذه الشهادات، وتحرم عليه حرمة أبدية، وقد قضى النبي ﷺ في ولد اللعان أنه يرث أمه وترثه. وكذلك ولد الزنا مثل ولد اللعان في أنه لا يرث الشخص الذي جاء بسببه ولا يرث إلا أمه، ولقد رعت هذه التشريعات الإسلامية كل هذه الشرائح فتكفلت بحفظ حياتهم وعملت وعملت على دمجهم في المجتمع ليكونوا عناصر مثمره انظر: ابن منظور: لسان العرب (مادة لعن)، حـ١٣، ص ٣٨٧-٣٨٨ ؛ الجرجاني: التعريفات، ص٨٣، ابن حزم: المحلى، حـ٩، ص ٣٠٢ ؛ بدران أبو العينيين: أحكام التركات والمواريث في الشريعة الإسلامية والقانون، ص ٣٢٣.

(٢) أخبر الكهنة فرعون بأن طفلا سوف يلد من بني إسرائيل سوف يقتله، فأصدر فرعون أمرا بقتل الأطفال الذكور وترك الإناث وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا القرار الجائر حين قال: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) القصص، آية ٤.

آل فرعون من النيل: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[١].

وهذه لفتة قرآنية عظيمة توضح بأن رعاية هذه الفئة الاجتماعية يعود بالخير والنفع العظيم على الأمة، لذا لا غرابة إذا رأينا التشريع الإسلامي يفرد بابا خاصا للّقيط، يوضح للناس فيه الأحكام المتعلقة به سواءاً كانت حقوقا له أم واجبات على المجتمع، ولعل من أبرز هذه الحقوق:

أولا: أن اللقيط يساوي الصبي الذي ليس بلقيط في عامة الأحكام، وله أحكام على الخصوص، منها: أن التقاطه واجب على كل من وجده، لأن في تركه كما تقدم ضياعه[٢].

ثانيا:- الحرية والإسلام

يعد مبدأ تكريم الإنسان وضمان حريته من المبادئ الأساسية التي نادت بها الشريعة الإسلامية منذ بزوغ فجرها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٣]. كما أكدت الشريعة الإسلامية السمحة قولا وعملا بأن الناس يولدون أحرارا، فوضعت الزواجر والعقوبات لمن يريد الاعتداء على هذه الحقوق المكتسبة،

---

(١) طه، آية ٣٨-٣٩.

(٢) ابن حزم: المحلى، حـ٥، ص ٢٧٣.

(٣) الاسراء، آية ٧٠.

ولعل صرخة عمر بن الخطاب ﷺ في وجه عمرو بن العاص ﷺ حاكم مصر، عندما اعتدى ولده على أحد الأقباط في مصر "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " خير شاهد على حرص الدولة الإسلامية على ترجمة التوجيهات النبوية والإسلامية في الواقع العملي [١].

وقد تظافرت النصوص الفقهية على التأكيد بأن اللقيط حر يتمتع بكل الحقوق، وأن حفظ كرامته وصون حريته واجب مقدس تكفلت به الأمة، التي عملت على سد كل الطرق التي قد تؤدي إلى انتقاص كرامته أو التعدي على حريته، لأنه ليس له مال ولا عشيرة ولا عصبة تحميه، فكانت التشريعات الإسلامية خير سياج لحراسته ورعايته حتى يشتد عوده ويأخذ دوره في البناء الحضاري للأمة[٢].

وبما أن الإنسان يولد على فطرة الإسلام "**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه**" فاللقيط بحكم الدستور الحضاري الإسلامي مسلم بغض النظر عن دين وجنس والديه[٣].

ثالثا: الاسم والانتماء

من أهم ما يحتاجه الطفل: الاسم والنسب، فوجوده بلا نسب كارثة تحل به،

---

(١) ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص٩٩-١٠٠.

(٢) الكاساني: بدائع الضائع، حـ ٦، ص١٩٨

(٣) المصدر السابق نفسه، حـ٦ ص ١٩٨ ؛ وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، حـ٦، ص٢٥٨٤.

ولعله لا يشعر بها إلا عند كبره حين يبدأ يتساءل عن اسم أبيه وأمه؟ وباسم من ينادى؟ وإذا تقدم للزواج فابن من يقول؟ وأسرته هي أسرة من؟. لذلك نجد الفاروق عمر ﷺ يقرر بأن اللقيط ينسب بالولاء إلى قبيلة من يتولى رعايته وتربيته، كما نجد القضاة والفقهاء على غير عادتهم يتساهلون في طلب البينات والدلائل والشهود من الذي يدعي نسبة هذا اللقيط له، قال الإمام الزيلعي –رحمه الله-: " ويثبت نسبه من واحد إذا ادعى نسبه... لأنه إقرار بما ينفعه وهو يتشرف بالنسب ويعير بعدمه..."(١)، وأكد هذا المعنى الإمام النووي حين قال: "وأن من ادعى حر مسلم نسبه لحق به وتبعه في الإسلام، لأنه يقر له بحق لا ضرر فيه على أحد"(٢).

رابعا: الرعاية والتربية

من منطلق الحماية الاجتماعية لكل الأطفال في الحضارة الإسلامية شددت التشريعات الإسلامية على أن من الحقوق الأصلية للّقيط أن ينمو ويترعرع في جو أسري وتربوي ملائم ؛ لذا نجد الفقهاء يحرصون كل الحرص على توافر الصفات الأخلاقية النبيلة فيمن يتولى رعاية اللقيط، فاشترطوا أن يكون مسلما يشهد له في مجتمعه بالصلاح والأمانة(٣). قال الإمام النووي رحمه الله

(١) الزيلعي: تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، حـ٣، ص٢٩٧ ؛ الكاساني: المصدر السابق، حـ٦، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) النووي: المصدر السابق، حـ١٥، ص ٢٩٩.

(٣) السرخسي: المبسوط، حـ ١٠، ص ٢١٣.

تعالى: فإن لم تختبر أمانته لم يترك في يده، لأنه لا يـؤمن أن يسـترقه إذا بعـد بـه عن عارفيه[١]؛ لذا نجد النصوص الفقهية واضحة جلية في النص على منـع تـولي الفاسق والعبد والكافر والخائن، ومن رمي بأي صفة مذمومة تقـدح في عدالتـه، كما اشترطوا أن تكون هذه الرعاية تحت عين السلطان بشـكل مبـاشر أو مـن ينيبه من كبار رجالات الدولة، والذي كان في الغالب قاضي القضاة[٢].

ومن أجل إبقاء بصيص مـن الأمـل في معرفـة والدي اللقـيط، ومـن أجـل اختيار الأفضل له، نص الفقهاء على عدم السماح بنقـل اللقـيط مـن مـكان إلى مكان إلا بإذن، لأنه إذا غادر المنطقة التي التقط منها، فإن بصيص هـذا الأمـل يتلاشى، لابل إنهم اشترطو أن لا ينقل من الحاضرة إلى البادية ؛ لأن ذلك لـيس لصالح اللقيط لأن الحياة في الحاضرة أفضل وأكثر رخـاء، قـال الإمـام النـووي: "ومن التقط لقيطا من بلد... فإنه يمنع نقله من الحضر إلى البادية، لأنه ينقل من الرخاء إلى الشدة، ومن طيب المنشأ إلى موضـع الجفـاء، لأن مقامـه في الحضـر أصلح في دينه ودنياه، وبقاؤه فيه أرجى لكشف نسبه وظهور أصله"[٣].

خامسا: حق النفقة

لقد ألزمت الشريعة الإسلامية السمحاء الأمة بالإنفاق على اللقـيط إلى حـد إلزام من وجد اللقيط بذلك، ولو أدى إلى القتال، يقول الإمام النووي رحمـه الله

(١) النووي: المصدر السابق، حـ١٥، ص٢٩٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، حـ١٥، ص٢٩٧-٢٩٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، حـ١٥، ص٢٩٢ ؛ ابن قدامه: المغنى، حـ٦، ص٣٧٦.

تعالى: "وعموما فإن لم يكن للّقيط مال ينفق عليه من بيت المال...، يعين الحاكم جماعة يتعاونون في الإنفاق عليه حتى يظهر له ولي، فإن امتنع أهل القرية أو البلدة عن الإنفاق على اللقيط وجب على الإمام قتالهم[١]، لأنهم تقاعسوا عن القيام بواجبهم الاجتماعي المقدس الذي كلفهم به الشارع، مما يترتب عليه فتح باب مفسده قد تهدد الأمن الاجتماعي للأمة، وهو في نفس الوقت مخالفة صريحة لروح الحضارة الإسلامية التي جاءت رحمة للعالمين ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[٢]. وقد صح عن النبي ﷺ قوله: "**من لايرحم لا يرحم**"[٣].

كما نص الفقهاء على أن من واجب الدولة الإسلامية الإنفاق على اللقيط من بيت المال، وتوفير حاجاته من مأكل وملبس وعلاج وغيرها[٤].

إن الإنفاق على اللقيط لم يجعله التشريع الإسلامي نوعا من أنواع الإحسان الاختياري، بل جعله واجبا على الأمة تتحمله بحكم التضامن الاجتماعي الذي يعد أساسا من الأسس الحضارية التي أرساها الإسلام.

ولعل المتأمل لنص الإمام النووي السابق "... وإما أن يعين الحاكم جماعة يتعاونون في الإنفاق عليه حتى يظهر له ولي..." يلاحظ أن الحضارة الإسلامية

---

(١) النووي: المصدر السابق، حـ١٥، ص٢٩١.

(٢) الانبياء: آية ١٠٧.

(٣) سبق تخريجه، ص٣٥.

(٤) وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وادلته، حـ٦، ص٨٥٣٢. وانظر عن نفقة اللقيط محمد مصطفى شلبي: أحكام الأسرة في الإسلام، ص٧١١

أرست منذ فترة مبكرة مبدأ تأسيس الجمعيات التطوعية التي تهدف إلى رعاية الفئات الخاصة في المجتمع، وهو سبق حضاري لم تنتبه إليه الأمم الأخرى إلا في فترات متأخرة، ولعل هذا ما حدا بهيئة الأمم المتحدة إلى أن تقر بأن مبدأ رعاية الطفولة في الإسلام خاصة الطفولة المحرومة هو من أفضل النظم التربوية وأنضجها.

ويبدو من تأمل كتب التاريخ الإسلامي أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ﷺ (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م) كان من أوائل حكام الدولة الإسلامية الذين خصصوا أموالا من بيت مال المسلمين لرعاية اللقطاء، وتوفير الجو الأسري المناسب لهم، فقد روى الصحابي سنين أبو جميلة[١] قال: أخذت منبوذا على عهد عمر ﷺ، فذكره عريفي لعمر ﷺ، فأرسل إلي فدعاني والعريف عنده، فقال: ما حملك على ما صنعت ؟ قلت: وجدت نفسا بمضيعة فأحببت أن يأجرني الله فيه، فقال عمر: هو حر، ولاؤه لك، وعلينا رضاعته[٢].

وفي حادثة أخرى: رفع لقيط إلى الفاروق - رضي الله عنه - أثناء خلافته فدفعه إلى امرأة صالحة لتتولى إرضاعه وتربيته مقابل أجر يدفع لها من بيت مال المسلمين[٣].

---

(١) سنين: أبو جميلة: من الصحابة الذين شهدوا حجة الوداع مع الرسول ﷺ، ومن الذين رووا عن أبي بكر وعمر ﷺ وروى عنه الإمام الزهري، انظر: النووي: المصدر السابق، حـ ١٥، ص٢٨٥

(٢) المصدر السابق نفسه، حـ١٥، ص٢٨٤ ؛ ابن همام: شرح فتح القدير، حـ ٤، ص٤١٧.

(٣) ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص٧٨-٧٩ ؛ ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية السياسة الشرعية، ص٢٨-٢٩.

وعندما تعددت حالات وجود اللقطاء استشار عمر بن الخطاب ﷺ الصحابة في نفقة اللقيط، فقالوا: من لم يكن له مال وجبت نفقته من بيت مال المسلمين[١]. فكان - رضي الله عنه - إذا أُتي بلقيط فرض له مائة درهم، وفرض لوليه رزق يصله كل شهر، وجعل رضاعته ونفقته وما يلزمه من بيت المال، على أن يزيد عطاؤه سنة فسنة، وكان يوصي بهم خيرا[٢]، وقد سار الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ على هذا النهج [٣].

وفي القرن السابع الهجري وبالتحديد في عام (٦٣٩ هـ/١٢٤١ م) تم إنشاء دار رعاية اللقطاء أطلق عليها "خانقاه ابن التبني" أنشاها الأمير عبد القاهر بن عيسى المعروف بـ (ابن التبني)[٤]. ويذكر ابن خلكان: أن صاحب إربل الملك المعظم مظفر الدين التركماني أبو سعيد كوكبوري (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م) العالم والمجاهد والمحسن من أروع ما اشتهر عنه نبوغه في الإحسان وبعد نظره فيه إنشائه دارا للملاقيط رتب بها جماعة من المراضع[٥].

ولعل إنشاء ديوان الغلمان في عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٣م) يعد الإشارة الأوضح لعناية الدولة الإسلامية بهذه الشريحة

---

(١) النووي: المصدر السابق، حـ ١٥، ص ٢٨٨.

(٢) محمد هيكل: الفاروق عمر، حـ ٢، ص ٢٢٣؛ علي وناجي الطنطاوي: اخبار عمر، ص ١٢٤ -١٢٥.

(٣) أبوعبيد القاسم بن سلام: الأموال، ص٣٣٩.

(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، حـ٦، ص ١٤١.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٦٢١-٦٢٢.

واستثمارها في البناء الحضاري الإسلامي، فكان هـذا الديـوان يشـرف على شراء هؤلاء الأطفال من أسواق الرقيق من مختلف المناطق في العالم، ومن ثم تـربيتهم تربية عسكرية إسلامية تحولهم إلى حراس للحضارة الإسلامية بعدما أصـبحوا جنودا مدربين يؤمنون بالإسلام دينا وعقيدة ومنهج حياة(١).

وفي العهد العثماني اهتمت الدولة العثمانيـة باللقطـاء وأنشـأت لهـم نظامـا خاصا عرف بـ(دوشرمه) غايته جمع أولاد النصارى اللقطاء، والعناية بتربيـتهم تربية عسكرية، حتى إذا بلغوا سن التجنيد أرسلوا إلى الثكنـات العسـكرية في العاصمة(٢)، ولعل جهود هـذه الشـريحة لا يخـفى في تحقـيقهم للنصـر الكبـير للعثمانيين على البيزنطيين عنـدما تـم فـتح القسـطنطينية عام ١٤٥٣م، وتحقـق الأمل الذي كان يصبوا إليه المسلمون منذ انطلاق حركة الفتح الإسلامي.

ولعلنا لا ننسى ما قام به المماليك قبل ذلـك مـن دور حضـاري رائـد عنـدما طهروا بـلاد المسـلمين مـن التتـار وبقايـا الصـليبيين، حيـث قـدمت الحضـارة الإسلامية الشاهد الدامغ على نجاح الحضارة الإسلامية في تحويل هـذه الشـريحة الاجتماعية المهمشة في جميع مجتمعات العالم إلى شريحة فاعلة وراعية للحضـارة الإسلامية، لا بل ودرعا وسندا لها عندما هددتها الأخطار من الشرق والغرب.

سادسا: حق الزواج:

لقد آمنت الحضارة الإسلامية بمبدأ الرعاية المستمرة للقيط، وضرورة الأخذ

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٣١٧.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة الغربية، جـ٢، ص٣٠١.

بيده حتى تطمئن عليه بأنه غدا لبنة صالحة في المجتمع يعيش حياة كريمة، متأقلما مع محيطه الاجتماعي، لذا رأت التشريعات الإسلامية بأن تزويج اللقيط ضرورة من الضرورات التربوية التي تساهم في دمج هذا اللقيط في مجتمعه وتساعده في شق طريقه في الحياة دون ضغوط اجتماعية أو نفسية، لذا نص الفقهاء بأن السلطان هو الذي يزوجه[١].

فانظر إلى هذه اللمسة الإنسانية في هذه الحضارة السامقة التي لم تهمل حتى إشباع الغرائز، وكل ذلك احتراما لكرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم الآمن، ولا غرابة بعد ذلك أن نقرأ أسماء هذا العدد العديد من هؤلاء المجهولين النسب ممن تركوا بصمات واضحة في مسيرتنا الحضارية في مختلف المجالات والحقول السياسية والثقافية والعسكرية، وكل ذلك بفضل هذه التشريعات التنظيمية التي وضعتها الشريعة الإسلامية لخدمة اللقيط، وممارستها في الواقع المعاش، لا نصائح أخلاقية تستهلك في المنتديات.

وكم نحن اليوم بأمس الحاجة لإعادة استنطاق هذا التراث الحضاري العظيم لنأخذ منه عمليته وواقعيته لدفع مسيرتنا الحضارية المعاصرة، لا أن يكون مجرد قصيدة شعر نشدوا بها بصرف الأنظار عما نعيشه من تخلف وتراجع حضاري.

---

(١) الكاساني: بدائع الصنائع، جـ٦، ص١٩٩.

ثالثاً: رعاية ذوى العاهات والأمراض المزمنة

أ- رعاية ذوى العاهات:

لقد أكد الدستور الحضاري الإسلامي على عدة توجيهات للأخذ بيد هذه الفئة الاجتماعية ومساعدتها على مواصلة دورها في الحياة، ومن هذه التوجيهات:

١- أن لهذه الفئات الاجتماعية حقوقها المقررة في الشرع، وأنه من واجب الأمة حكاما ومحكومين الالتفات إليها وإعطائها نفس الاهتمام الذي تعطيه للأفراد الأصحاء، لأن إعمار هذا الكون بحاجة لجهود كل عناصره البشرية، فضلا عن أن من أهداف الإسلام تحرير الإنسان وحفظ كرامته وسد كل الطرق المؤدية إلى ظلمه، فالظلم لأي شريحة من شرائح المجتمع يؤدي كما هو معلوم إلى توترات واختلالات اجتماعية لا تحمد عقباها.

٢- إن الأمة ملزمة بالإنفاق على هذه الفئات لتعيش حياة كريمة، فقد نص الفقهاء على أن الأعمى والمقعد والمصاب بالشلل في اليدين أو الرجلين أو أحدهما، وفاقد العينين وغيرها من المصابين بالعوارض التي تمنع الاكتساب تجب نفقتهم على الأمه بإجماع الأئمة الأربعة[١].

٣- إن الشارع خفف عن هذه الفئات الكثير من الأعباء الملقاة على عاتقها، فلا تكلف بأعباء الجهاد مثل الأصحاء على سبيل المثال، كما أكد على

---

(١) الشافعي: الأم، جـ٥، ص١٠٠؛ الكاساني: بدائع الصنائع، جـ٤، ص٣٥.

ضرورة دمجهم في المجتمع وعدم عزلهم، وطلب أن يختلط هؤلاء بأفراد المجتمع في المأكل والمشرب، وعاتب من يتحرج في مجالستهم ومواكلتهم، لأن تركهم واعتزالهم يترك آثارا غائرة في نفوسهم يكون لها انعكاساتها الخطيرة على نظرتهم للحياة والمجتمع، فيغدو عالة على الأمة بدلا من مساهمتهم في بنائها، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ...﴾[1].

٤- إن لهذه الفئات طاقات مذخورة لا يجب الاستهانة بها، ويمكن استغلالها لدفع المسيرة الحضارية للأمة. فقد جاء هذا التوجيه الحضاري على شكل قرآن يتعبد بتلاوته حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وتفصيل الأمر أن الدعوة الإسلامية عندما كانت تتعرض للملاحقة والاضطهاد من طواغيت الكفر في مكة المكرمة، كان رسول الله ﷺ يتشوف للنصرة من زعماء القبائل العربية، في هذه الظروف الصعبة جاءت نخبة من وجهاء العرب إلى النبي ﷺ للتحدث معه بشأن الإسلام، في الوقت الذي صادف مقدم الأعمى ابن أم مكتوم عليه ليعلن إسلامه، فأعرض عنه مقبلا على وجهاء مكة المكرمة طمعا في إسلامهم، وما يترتب عليه من نتائج لصالح الدعوة الإسلامية، فجاء القرآن الكريم معاتبا للمصطفى عليه الصلاة والسلام على هذا التصرف، منبها بأن من واجبات القائد أن يحرص على إقامة العدل وعدم الإستهانة بطاقات أحد، ولعل طاقة هذا الأعمى تكون أنفع للأمة من غيره، فأنزل الله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَن جَاءهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ

(١) النور، آية ٦١.

﴿يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢﴾[1].

أجل إن الإنسان المعوق عنده قوة كامنة، وهذا ما جعل الناس يقولون في المثل السائر "كل ذي عاهة جبار"، هو ليس جبارا إنما عوضه الله وأعطاه ما يستعين به على مواجهة الحياة رغم ما أصابه من آفة، وهو ما يسميه العلماء بقانون التعويض، فهناك سنة إلهية أن الله سبحانه وتعالى إذا حرم إنسانا شيئا عوضه مقابله شيئا آخر، فالأعمى على سبيل المثال فقد البصر ولكن تجده قوي السمع، وله قدرة عالية على التمييز بين الأصوات، قوي الإحساس باللمس، يعرف الناس من خطواتهم، قوي الحافظة، فسبحان الله الرؤوف بعباده العدل في قضائه.

لقد باشر المصطفى ﷺ بعدما تلقى العتاب من ربه في سورة عبس إلى توجيه أنظار الأمة لأهمية رعاية هذه الشريحة من المجتمع، فكان علي سبيل المثال: يعهد لعبد الله بن أم مكتوم الذي عاتبه فيه ربه ليصلي بالناس أثناء غيابه عن المدينة المنورة في بعض غزواته[2]، وكان ابن عباس يؤم الناس بعدما فقد بصره، وروى البخاري والنسائي أيضا أن عتبة بن مالك كان يؤم قومه وهو أعمى[3].

وقد تعددت صور توجيهات المصطفى صلى الله عليه وسلم لهذه الشريحة (العميان) وللأمة، فكان دوما يحرض على رفع معنوياتها ويحثها على العمل من

(١) عبس، آية ١-١١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٢٦٠، الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٦٣٢.

(٣) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ٣، ص١٦٠.

خلال تعظيم الأجر لها إذا صبرت واحتسبت ومارست دورها الحضاري دون أن تجعل من هذه العاهة عائقا وعقبة أمام أخذها لدورها المناسب في المجتمع، فقد بشر النبي ﷺ من فقد إحدى عينيه أو كلايهما بالجنة، فقال: "**إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة**"(١). وجاء في الحديث القدسي: "**من أذهبت حبيبتيه فاحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة**(٢)".

وكعادة الصحابة الكرام ما أن رأوا سلوك النبي ﷺ تجاه هذه الفئة الاجتماعية حتى بدأوا يتسابقون في مد يد العون لها، فقد روى الإمام الأوزاعي رحمه الله عن الخليفة الراشدي الثاني الفاروق عمر رضي الله عنه أنه خرج في سواد الليل فرآه الصحابي الجليل طلحة بن عبيد رضي الله عنه، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، قال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتتبع(٣).

وكان عمر رضي الله عنه شديد البر لأصحاب العاهات خاصة العميان، وكان لا يرد لهم طلبا، ويحاول جهد استطاعته أن يحقق لهم ما يتمناه كل واحد منهم، ولعل قصته مع الصحابي الشاعر المخضرم الكفيف أمية بن الأسكر الكناني(٤)، أحد

---

(١)البخاري رقم ٥٢٢١، المرضى، فضل من ذهب بصره.

(٢) الترمذي: صحيح الترمذي، ١٩٥٩.

(٣) ابن الجوزي: صفوة الصفوة، جـ١، ص١٠٧.

(٤) اسمه أمية بن الأسكر – بسين مهمله- بن عبد الله بن زهرة الكناني الليثي الجندعي له صحبه، انظر: ابن حجر: الأصابه، جـ١، ص٦٤.

سادات بني ليث خير شاهد على محبته لكل أفراد مجتمعه، وبشكل خاص الفئات المحرومة من نعمة البصر، فقد كان لأمية هذا ابن اسمه كلاب خرج مجاهدا في جيش أبي موسى الأشعري في العراق، فاشتاقه أبوه، فأخذ قائده بيده ودخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنشده قصيدة منها:

أعاذل قد عذلت بغير قدر ... وما تدرين عاذل ما ألاقي

فإما كنت عاذلي فردي ... كلابا إذ توجه للعراق

وفي رواية أنه أنشده:

لمَن شيخان قد نشدا " كلابا" ... كتاب الله لو عقل الكتابا!

أناديه، فيعرض في إباء ... فلا، وأبي كلاب، ما أصابا

إذا سجعت حمامة بطن واد ... إلى بيضاتها أدعو كلابا

تركت أباك مرعشة يداه ... وأمك ما تسيغ لها شرابا

فإنك والتماس الأجر بعدي ... كباغي الماء ينبع السرابا

فبكى عمر رضي الله عنه وكتب إلى أبي موسى الأشعري برد كلاب إلى المدينة المنورة، فلما قدم ودخل عليه، قال له عمر: ما بلغ من برك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت إذا أردت أن أحلب له لبنا أجيء إلى أغزر ناقة في إبله فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه، فبعث عمر رضي الله عنه إلى أمية فجاءه فدخل عليه، وهو يتهادى وقد انحنى، فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟ فقال: كما ترى يا أمير المؤمنين، فقال: هل لك حاجة؟

فقال: نعم، كنت أشتهي أن أرى كلابا، فأشمه وأضمه ضمة قبل أن أموت، فبكى عمر ﷺ وقال: ستبلغ في هذا ما تحب إن شاء الله، ثم أمر كلابا أن يحلب ناقة كما كان يفعل، ويبعث بلبنها إليه، ففعل وناوله عمر ﷺ الإناء، وقال: اشرب هذا، فأخذه، فلما أدناه من فيه، قال: والله يا أمير المؤمنين إني لأشم رائحة يدي كلاب، فبكى عمر ﷺ وقال: هذا كلاب عندك، وقد جئناك به فوثب إلى ابنه وضمه، وجعل عمر والحاضرون يبكون، وقالوا لكلاب: إلزم أبويك فلم يزل مقيما عندهما إلى أن ماتا[١].

وسار على هذا النهج حكام المسلمين وأهل الخير في الأمة، فها هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) يصدر مرسوما حضاريا راقيا يعبر عن شفافية وإنسانية الحضارة الإسلامية واحترامها لهذه الفئات، فقد أعلن بأن رعاية الفئات الخاصة في المجتمع هي من واجبات الدولة، لذا نجده يأمر بتخصيص قائد لكل أعمى يسهر على راحته، فضلا عن راتب شهري يغطي نفقاته[٢]. كما ثبت عن الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) أنه كتب إلى أمصار الشام: أن ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان، أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة (داء مزمن) يحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمن بخادم[٣].

(١) مختصر نكت الهميان في نكت العميان، ص٣٠-٣١؛ أبو بكر الطرطوشي: بر الوالدين، ص٨٠-٨١.

(٢) ؛ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٠٥، أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، ص٢٣.

(٣) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٥٤-١٥٥.

وجاء في سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم أنه كان إذا كثر عنده أرقاء الخمس وجههم لخدمة المقعدين والعميان وأصحاب الأمراض المزمنة[١].

ويروي الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة في رحلته أنه شاهد في بغداد جماعة من العميان يؤمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده، ونفقة تجري عليه[٢].

ولعل تسابق أهل الخير حكاما ومحكومين على وقف الأوقاف لصالح هذه الفئات الاجتماعية خير شاهد على نضج الحس الاجتماعي للأمة الإسلامية، وسمو حضارتها، إذ يندر أن نرى بقعة معمورة كانت تتفيء بظلال الحضارة الإسلامية لا يوجد فيها وقف لأصحاب العاهات، فكان على سبيل المثال: صاحب إربل: أبو سعيد كوكبوري(ت٦٣١هـ/١٢٣٣م)، معجزة دهره في إتيان الخير والبر، فقد بنى أربع خانقات للزمنى والعميان، فامتلأت بهم[٣].

وفي تونس كان وقف سيدي أبي العباس السبتي للعميان والزمنى يأخذون كل يوم من ريعه ما يعيشون به ذكورا وإناثا على كثرة عددهم[٤]. كما وقف أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد أحد أمراء الدولة الحفصية (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) بيمارستانا للضعفاء والغرباء

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، ص٥٤.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٠٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٦٢١.

(٤) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٣٧.

وذوي العاهات من المسلمين، وأوقف على ذلك أوقافا كثيرة في تونس[١]. كما وجد في مدينة فاس قصر يسمى: "دار الشيوخ" مخصص لتزويج المكفوفين الذين لا يتوفرون على سكن[٢].

لقد ساعدت الخدمة الاجتماعية الراقية التي وفرتها الحضارة الإسلامية لهذه الفئات إلى تفجير طاقاتها الكامنة، والتي أثمرت علما وأدبا وإبداعا في مختلف الحقول، حتى أن بعضهم أخذ يفتخر بعاهته التي لم تعقه عن أخذ مكانته بين أعلام الأمة، فها هو الشاعر الأعمى بشار بن برد يقول:

إذا ولد المولود أعمى وجدته ... وجدك أهدى من بصير وأحولا
عميت جنينا والذكاء في العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم معقلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا ... لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا[٣]

وقد مزق الوشاحون موشحاتهم عندما افتتح الشاعر الأعمى التطيلي، أبو جعفر أحمد بن عبدالله (ت٥٢٠هـ/١٢٢٦م) موشحه بقوله:

ضاحكٌ عن جُمانْ ... سافرٌ عن بَدرِ
ضَاقَ عنهُ الزمانْ ... وَحَواهُ صَدْري

(١) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، ص٢٨٠.
(٢) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في التكافل الاجتماعي عبر عصر بني مرين (٦٥٧-٨٦٩هـ) دعوة الحق، رجب ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٠.
(٣) الجاحظ: البرصان والعرجان والعميان والحولان، ص٢٠.

وذلك اعترافا بعبقريته، حيث صار توشيحه مثلا سائرا في الناس[١].

ولا ننسى الشاعر الفيلسوف رهين المحبسين، أبو العلاء المعري ووصفه للنجوم وصفا عجز عنه الشعراء المبصرون، فضلا عن أشعاره ونظرياته الفلسفية، مما جعله محل ثناء وتقدير علماء الشرق والغرب على حد سواء[٢].

ولعل المتأمل لكتب التراث الإسلامي يلحظ ما حظيت به الفئات الاجتماعية الخاصة من عناية وتكريم، إذ أفردت لها مؤلفات وأبحاث عديدة ترصد نتاجهم العلمي، وتتحدث عن مواهبهم وسيكولوجية تفكيرهم، وملامح شخصياتهم، والتي كانت في الغالب محل تقدير وثناء الأمة حكاما ومحكومين، حتى أن الخليفة كان لا يجد حرجا في بعض المناسبات من أن يصب الماء على يد أحد العلماء المكفوفين تقديرا لعلمه.

ومن العلماء الذين سجلوا سبق الحضارة الإسلامية في رعاية هذه الفئات، عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ/٧٦٧-٨٦٤م) الذي ألف كتابا يسجل فيه إبداعات وإسهامات أصحاب العاهات في خدمة الحضارة الإسلامية أسماه: "البرصان والعرجان، والعميان والحولان"، ذكر فيه مجموعة من مشاهير

---

(١) سلامة محمد الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، دراسة سياسية وحضارية، ص٣٤١-٣٤٢.

(٢) أبو العلاء المعري، ولد في معرة النعمان شاعر مبدع فقد بصره في الرابعة من عمره من مؤلفاته: سقط الزند، واللزوميات، ورسالة الغفران (ت٤٤٩هـ/١٠٥٧م).

العميان منهم على سبيل المثال: العباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن عباس، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أرقم، والبراء بن عازب، وحسان بن ثابت، والمطعم بن عدي، وعمرو بن كلثوم، وبشار بن برد، وأبو العلاء المعري، وهم كما يلاحَظ أعلام في التفسير والفقه والحديث والأدب والسياسة والحرب، وقسم كبير منهم فقد بصره في آخر عمره.

وذكر لنا الجاحظ أيضا من العور: الأشعث بن قيس الذي ذهبت عينه يوم اليرموك، والأحنف بن قيس، والأشتر النخعي، والمختار بن عبيد، وكلهم من كبار قادة الدولة الإسلامية(١).

ومن العرجان: الأقرع بن حابس(٢)، وأبو الأسود الدؤلي(٣)، والقائد الشهير موسى بن نصير فاتح الأندلس(٤)، والصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله(٥).

أما ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) فقد خصص آخر فصل من كتابه "المعارف" للمكافيف، ذكر منهم: أبا قحافة والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي ذهب بصره في آخر عمره.

وساق ابن الجوزي، جمال الدين أبا الفرج عبدالرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

---

(١) الجاحظ: البرصان والعرجان والعميان الحولان، ص٣٦٢-٣٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢٢، ٢٧٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٢٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص١٣٧.

فصلا في آخر كتابه "تلقيح فهوم أهل الأثر" في تسمية العميان الأشراف. كذلك ذكر أبو العباس أحمد بن علي بن بابا في كتابه "رأس مال النديم" أشراف العميان.

أما صلاح الدين أيبك الصفدي فقد ألف كتابا أسماه "نكت الهميان في نكت العميان". وللخطيب البغدادي جزء جمعه في العميان، وغيرهم كثير.

وقد أفردت كتب الفقه مساحة لا بأس بها لهذه الشريحة الاجتماعية، فركزت على الحقوق والالتزامات المترتبة لها وعليها، فجوزت وقف الأعمى لصحة عبارته[1] ليساهم في ترك بصماته في خدمة الأمة من خلال ما أوقفه من مال منقول وغير منقول تحصّل عليه من عرق جبينه وجهده أثناء ممارسته لدوره الحضاري، الذي ما كان ليقوم به لولا هذه الرعاية المتميزة التي وفرتها له هذه الحضارة.

ولعل البعض يظن بأن رعاية الحضارة الإسلامية للمكفوفين أتاحت لهم فرصة النبوغ في المجالات النظرية من شعر وأدب ولغة وتفسير وفقه وفلسفة، بل الأمر لم يقتصر على ذلك، بل تعداه إلى العلوم التطبيقية، فكان هناك كوكبة من الأطباء المكفوفين، يأتي على رأسهم: الطبيب أبوالحسن علي بن إبراهيم بن بكس، الذي تثني عليه المصادر بقولها: إنه كان فاضلا عاملا بصناعة الطب، وكان إذا أراد معرفة ما طرأ على وجوه المرضى من تغير فضلا عن معرفته لحال بول المرضى، استعان ببعض تلاميذه في وصف ذلك. ومنهم أبو الحسن بن مكين البغدادي

(١) وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، جـ١٠، ص٧٦٢٧.

الضرير الذي كان يقوده تلميذه إلى ديار المرضى لتفقد أحوالهم... وغيرهم[١].

ومن العلماء العميان الذين سجلوا بصمات واضحة في الحضارة الإسلامية وشهد لهم علماء الأمة بالتميز:

١- إبراهيم بن إسحاق: الأديب اللغوي الشاعر، كان من الشعراء المجودين، سمع الحديث وتعلم الفقه والكلام، مات في نيسابور ٣٧٨هـ/٩٩٣م.

٢- إبراهيم بن مسعود بن حسان المعروف بالوجيه الصغير النحوي، من أهل الرصافة ببغداد، وكان عجيبا في الذكاء وسرعة الحفظ، يحفظ كتاب سيبويه، ت٥٩٠هـ/١١٩٣م.

٣- أحمد بن إبراهيم بن حسن بن توهيت القرشي الأموي، علم الدين الضرير الفقيه (٦٢٠-٦٨٦هـ/١٢٢٣-١٢٨٧م). كان فقيها له مشاركة في النحو والأصول.

٤- أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور العلامة شمس الدين أبو عبدالله الإربلي الموصلي النحوي الضرير، ابن الخباز صاحب التصانيف، كان أستاذا بارعا في النحو واللغة والعروض والفرائض (ت٦٣٩هـ١٢٤١م).

٥- أبو العلاء المعري، أحمد بن عبدالله بن سلمان بن محمد المعري، ت(٣٦٣-٤٤٩هـ/٩٧٣-١٠٥٧م).

---

(١)أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، ص١٧.

٦- أحمد بن عبدالله المهاباذي الضرير من تلاميذ عبدالقاهر الجرجاني، كان نحويا، وله شرح اللمع.

٧- أحمد بن محمد بن علي بن نمير أبو سعيد الخوارزمي الضرير الفقيه العلامة الشافعي: قال الخطيب: درس وأفتى ولم يكن بعد أبي الطيب الطبري أفقه منه، ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م).

٨- أحمد بن محمد المرندي الضرير المقرئ البغدادي، كان عالما بالتفسير والفرائض وبتعبير الرؤيا (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م).

٩- إسماعيل بن أحمد بن عبدالله الحيري، أبو عبدالرحمن الضرير المقرئ المفسر والواعظ الفقيه المحدث، أحد أئمة المسلمين (٣٦١-٤٣٠هـ/٩٧١-١٠٣٨م)، له التصانيف المشهورة في علم القرآن والقراءات والحديث والوعظ وغيرها.

١٠- أيمن بن نابل الحبشي المكي الطويل الضرير، عداده في صغار التابعين (ت ١٦٠هـ/٧٧٦م)، روى له البخاري والترمذي والنسائي.

١١- الحسين بن علي بن ثابت المقرئ: صاحب المنظومة في القراءات السبع، وكان حافظا ذكيا، ولد أعمى (ت ٣٨٧هـ/ ٩٨٨م).

١٢- ابن الزلاّل، الحسين بن يوسف بن أحمد، أبو علي الأنصاري الأندلسي الضرير، كان محققا مشاركا في فنون عديدة.

١٣- عبدالله بن عبدالعزيز، أبو القاسم الضرير، النحوي المعروف بأبي موسى كان يؤدب المهتدي، كان من أهل بغداد، وله كتاب في الفرق، وكتاب في الكتابة والكتّاب.

١٤- عبدالله بن محمد، أبو محمد المكفوف النحوي القيرواني، كان عالما بالعربية والشعر (ت ٣٠٨هـ/٩٢٠م) وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على كل ما صنف، وكانت الرحلة إليه من جميع أفريقية، لأنه كان أعلم الناس بالنحو والشعر واللغة وأيام العرب.

١٥- علي بن عبدالغني، أبو الحسن الفهري المقرئ الحصري الشاعر الضرير (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) ومن قصائده المشهورة:

يا ليل الصب متى غده وأقيام الساعة موعده

رقد السمّار فأرقه أسف للبين يردده[1]

ب- رعاية المجانين وأصحاب الأمراض المزمنة:

من معالم رقي ونضج الحضارة الإسلامية تلك اللمسات الرحيمة التي تجلت في العناية بالمصابين بأمراض عقلية أفقدتهم السيطرة على ذواتهم والشعور بمن حولهم، وبالتالي فقدوا دورهم في الحياة، رغم هذا كله، نجد الحضارة الإسلامية التي جعلت من مبدأ الرحمة نبراساً وهادياً لها، تبذل ما بوسعها لرعاية هذه الفئة والتخفيف من معاناتها، والعمل على علاجها بقدر المستطاع، وتكليف من يعتنون بها، صوناً لكرامتها، وتأصيلاً لمبدأ التكافل والرحمة، والذي يعد ركناً من أركان هذه الحضارة، انتشرت الأوقاف ودور البر والإحسان في مشارق الأرض

(١) جميع الشواهد التي تقدمت مأخوذة من مختصر نكت الهميان في نكت العميان، ص٢٢-٢٩، ٣٢،٣٨، ٥٢،٥٤، ٦٥

ومغاربها للعناية بهذه الفئة.

وقد خصصت الدولة الإسلامية مستشفيات لرعاية المجانين، وأفردت غرفاً خاصة في المستشفيات العامة لمداواتهم سريرياً ونفسياً[١]. كما ذكر المؤرخون أنه جاء في نفقات الخليفة العباسي المعتضد بالله أنه خصص لمستشفى الصاعدي الذي كان قد أسسه القائد صاعد بن مخلد أموالاً للنفقة عليه لأثمان الأدوية والأطعمة والأشربة لخدمة المغلوبين على عقولهم[٢].

وجاء في وقف أحد المستشفيات المخصصة للأمراض العقلية أن "كل مجنون خصص له خادمان يخدمانه، فينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحممانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة و النغمات الموسيقية الطيبة"[٣]. وذكر الرحالة ابن جبير أنه عاين في أحد البيمارستانات بالقاهرة جناحاً خاصاً متسع الفناء فيها مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت للمجانين، وأنه كان من يتفقدهم كل يوم[٤].

وقد انتشرت مستشفيات المجانين في كل المدن الإسلامية فأورد ابن عبد ربه في "العقد الفريد" أن هناك بيمارستاناً خاصاً بالمجانين في بغداد، وهو دير

(١) المقريزي: الخطط والاثار، جـ٢، ٤٠٥.

(٢) عبد الستار ابراهيم الهيتي: الوقف ودوره في التنمية، البحث الفائز بجائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية لعام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص١٦٥-١٦٦.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٢٤.

هرقل القديم على مرحلة من مدينة واسط[١]. كما كان هناك مستشفاً آخر للمجانين في دمشق[٢] وفي مدينة فاس كان هناك بيمارستان سيدي فرج للمجانين[٣].

وفي العصر المريني اهتم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨ – ١٢٨٦م) برعاية المجانين، فقد كان حسب ما ورد عن ابن أبي زرع أنه كثير الخير والرأفة على الضعفاء والمساكين، صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر بتفقد أحوالهم في الصباح والمساء[٤].

ويؤكد المؤرخ السلاوي بأن السلطان يعقوب المنصور الموحدي، قد اعتنى بالمجانين، وأجرى عليهم الأرزاق في جميع أعماله[٥]. كما بنى في مراكش مارستاناً وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام، كما خصص للمرضى ملابس للنوم فضلا عن كسوة للشتاء والصيف، فإذا تماثل المريض للشفاء وكان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعتاش منه ريثما يشتغل، ويقول المؤرخ المراكشي: ما أظن في الدنيا مثله[٦].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٧، ص١٦٢-١٦٣.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق، ص٢٣٠.

(٣) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، ص٢٨٤.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٩٨.

(٥) السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص١٩٨.

(٦) المراكشي: المعجب، ص١٩٠-١٩١.

واستمرت عناية الدول الإسلامية المتعاقبة بالمجانين حتى فترة متأخرة من الدولة العثمانية، فنرى على سبيل المثال بيمارستان السلطان العثماني سليمان بن السلطان سليم عاشر سلاطين آل عثمان (ت ٢٢ صفر ٩٧٤هـ/١٥٦٦م) في القسطنطينية، قد خصص لمداواة المرضى وتربية المجانين بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين[١]. علماً بأنه كان يخصص لكل مجنون في معظم المستشفيات مرافقاً خاصاً يأخذه باللين والرفق ويصحبه بين الزهور والرياض الخضراء ويسمعه ترتيلاً هادئاً من آي الذكر الحكيم[٢].

وتؤكد المصادر بأن الحضارة الإسلامية أدركت ما للترويح والتسلية من أثر في إدخال البهجة على المرضى المصابين بالأمراض النفسية، فكان في بعض المستشفيات على سبيل المثال فرق للإنشاد تقوم بإنشاد الأناشيد الجميلة للترفيه عن المرضى الذين لا يستطيعون النوم[٣].

وفي بعض الأحيان كان يعزل المؤرقين في قاعات منفردة عن بقية المرضى حيث تشنف إذانهم بالأصوات الندية فضلاً عن تسليتهم بالأقاصيص التي يلقيها عليهم القصاص، إلى جانب مشاهدة بعض التمثيليات المضحكة، وكان أيضاً المؤذنون في المسجد الملاصق للمستشفى يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين، وينشدون الأذكار بأصوات ندية من أجل تخفيف الألم عن

(١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص١١٢.
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت[١].

كما تنبهت الأمة الإسلامية إلى أثر العوامل النفسية في معالجة المرضى، خاصة المصابين بالأمراض النفسية، لذا نجد بعض أهل الخير والإحسان يبادرون إلى وقف الأوقاف لخدمة هذا الهدف الإنساني السامي، فقد أوقف أحد المحسنين في مدينة طرابلس اللبنانية وقفاً يخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يومياً فيتحدثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً ليسمعه المريض بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه[٢]. وكما هو معلوم، فقد ثبت علمياً اليوم بأن الروح المعنوية لها أثر كبير على حالة المريض، فالمريض الذي يتمتع بروح معنوية عالية يتعافى أسرع من المريض الذي يتصف بضعف المعنوية.

جـ - أصحاب الأمراض المزمنة والخطيرة:

ولم ينس الوجدان الحضاري الإنساني أصحاب الأمراض المزمنة والخطيرة، ممن ليس لهم أقارب يقومون بأمرهم، فقد وجدت الكثير من الأوقاف في مختلف المدن الإسلامية لخدمة هذه الشريحة الاجتماعية، فقد خصص الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ / ٧٠٥ – ٧١٤م) على سبيل المثال في دمشق مصحات لمرضى الجذام لرعايتهم والإنفاق عليهم ومنعهم من الاحتكاك بالناس[٣].

ويذكر المؤرخ ابن الفرات وكذلك العيني كيف حرص حكام الدولة

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) نفس المرجع السابق، ص١١٣.

(٣) أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، ص٢٧٨.

الإسلامية على إخراج المصابين بالبرص والجذام من المدن المكتظة إلى حيث كانت تقام لهم مصحات خاصة لعلاجهم(١). ووجدت بمدينة فاس المغربية في عهد الوطاسين ربض خاص بالمجذومين يحتوي على مائتي منزل تحت إشراف رئيس الربض المكلف بجمع مداخيل الأوقاف الخاصة بهؤلاء وبأنفاقها على توفير حاجاتهم(٢). وقد رتب أبو يعقوب المريني للفقراء وأصحاب العاهات كالجذمى والعمي مالاً معلوماً يقبضونه كل شهر من جزية اليهود(٣). وأوقف في تونس أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبي العباس أحمد بن عبدالله أحد ملوك الدولة الحفصية (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) مارستاناً للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة(٤).

وكان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) يفرض للزمنى من بيت مال المسلين فريضة الصحيح لكفاية حاجته، وقد بدا لأحد ولاة عمر في دمشق ألا يكون لهؤلاء فريضة كاملة كفريضة الصحيح، فقال في رده على الخليفة: الزمن ينبغي أن يحسن إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا، فكتب إليه الخليفة: إذا أتاك كتابي هذا فلا تعنت الناس، ولا تعسرهم، ولا تشق عليهم(٥).

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة، ص٦٥.
(٢) ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ص٢١٥.
(٣) مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص٩١.
(٤) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، ص٢٨٠.
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٨٠.

ويستند عمر بن عبد العزيز في فعله هذا على ما كان في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي كتب إلى عامله المعين على مصر الأشتر النخعي[١] يوصيه بأن يعتني بأهل الزمانة والمرضى حيث قال: "ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، ولا يشغلنك عنهم بطر... ولا تصعر خدك لهم. وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكُلٌّ فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهد أهل اليتيم، وذوي الرمة في السن ممن لا حيلة له... ثم احتمل الخرق منهم والعيي وانح عنهم الضيق والأنف، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته[٢].

وكان من شرط البيمارستان الكبير النوري الذي أسسه نور الدين محمود زنكي (٥٤٩هـ/١١٤٥م) أنه يكون على الفقراء والمساكين، وقد جاء في شرط وقفه الذي شهد به على نفسه أنه وقف على البيمارستان المعروف باسمه وجعله مقراً

(١) هو مالك بن الحارث بن يغوث بن مسلمة كان فارسا شجاعا من كبار أنصار علي ﷺ لمزيد من التفاصيل عن حياته انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٤، ص ٣٤-٣٥؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، جـ٥، ص١٠١.

(٢) انظر نص الرسالة كاملة: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة،جـ١٧، ص٣٠-١١٧.

لتداوي الفقراء والمنقطعين من ضعفة المسلمين الذين يرجى برؤهم وهو يستعدي إلى الله تعالى على من يساعد على تغيير مصارف وقفه وإخراجها عما شرط...[١].

وقد استمر هذا البيمارستان في عمله حتى مقدم التتار (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[٢]. وقد اعتبره ابن جبير من أعظم البيمارستانات في الشام على الإطلاق في الحروب الصليبية لا بل اعتبره مفخرة من مفاخر الإسلام العظيمة[٣].

وجاء على عتبة باب مارستان حصن الأكراد "بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى بَكُتَمِر بن عبد الله الأشرفي ناشب السلطنة المعظمة بحصن الأكراد، أثابه الله تعالى، وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين، وذلك في شهور سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م[٤].

وهكذا نجحت الحضارة الإسلامية في ترجمة التوجيهات القرآنية والنبوية إلى واقع مجسد في مؤسسات اجتماعية تكفكف دموع الضعفاء، وتواسي أصحاب العاهات، وتعمل على الأخذ بأيديهم وتفجير طاقاتهم من أجل خدمة الأمة، فنجحت أيما نجاح في تحقيق أهدافها السامية، ولعل من أبرز مؤشرات هذا النجاح هذا الكم الهائل من العلماء من أصحاب العاهات ممن تزخر بهم كتب التراجم، حيث لا نجد فرعاً من فروع المعرفة في الغالب الأعم إلا ونطالع اسم عالم مصاب بعاهة من العاهات قد ترك بصمة من البصمات العملية فيه.

---

(١) أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، ص٢٠٦، ٢١٤.

(٢) بدر الدين بن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص٣٧ – ٣٨.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٢٧٤، ٢٨٢.

(٤) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، ص٢٤٨.

رابعاً: قضاء الدين عن الغارمين[١]

لم تنس الحضارة الإسلامية بأن تغمر بلمساتها الإنسانية تلك الفئة التي تعرضت لسبب من الأسباب إلى فقدان أموالها[٢] وألجأتها الحاجة إلى الاستدانة فتراكمت عليها الديون حتى عجزت عن الوفاء، إذ جعلت لها نصيبا من مصارف الزكاة لمساعدتها في مواصلة مشوارها في البناء الحضاري للأمة فضلا

(١) الغارم هو الشخص الذي يعيش في الدولة الإسلامية مسلما كان أو ذميا، واستدان ثم لم يقدر على أداء الدين عند حلول الأجل بشرط أن لا يكون هذا الدين في معصية وقال مجاهد: ثلاثة في الغارمين: رجل ذهب السيل بماله، ورجل له عيال وليس له مال انظر: يوسف القرضاوي: فقه الزكاه، ص٦٢٣-٦٢٤.

(٢) وقد ذكر العلماء العديد من الأسباب التي تؤدي الى الغرم منها:

أ- الغارم لإصلاح ذات البين يشغل ذمته بالدين حقنا للدماء والفتنة حتى لو كان هذا الإصلاح بين أهل الذمة.

ب- الغارم لإصلاح المجتمع بإقامة المشروعات الاجتماعية كدور الإصلاح، ودور العلم، والمصحات فيأتي الغرم بسبب إصلاح ذات البين فكلاهما غارم للمصلحة العامة.

ج- استغراق المال بالدين: لكساد حل بالبلاد.

د - الكوارث والطوارئ والزلازل، والبراكين والقحط، والحرائق ويقدر الإمام أبو عبيد في كتابه "الأموال" ضرورة مساعدة الغارم بسبب الإصلاح ذات البين تعزيزا للفضيلة حتى لو كان غنيا فقال:" وسواء أكان الغرم: إصلاح ذات البين على المستوى الفردي أو الجماعي، ولو كان غنيا، حتى لا يكون إصلاحه وسعيه بالخير بين الناس سببا لفقره، فيعوض ما دفع " انظر أبو عبيد: الأموال، ص٥٧٧ ؛ القرضاوي: فقه الزكاة، ص٦٢٣-٦٢٤ ؛ ٦٣٠.

عن حفظ كرامتها من الامتهان والذل ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّه وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّه وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وإذا ظل الغارم فقيرا بعد أداء الدين عنه أعطي من الزكاة بصفته فقيرا، فيأخذ في هذه الحالة من أموال الزكاة بصفتين صفة الغارم وصفة الفقير شريطة ألا يكون الدين في معصية(٢).

وقد ضربت الحضارة الإسلامية أروع الأمثلة في إعانة المعسرين والأخذ بأيدي الغارمين، والتخفيف من معاناتهم ومساعدتهم على مواصلة حياتهم، فقد شرع الخليفة عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – بعد توليه للحكم بتلمس حاجات رعيته فأصدر عدة مراسيم لمساعدة المحتاجين من أبرزها قضاء الدين عن الغارمين، فقد كتب إلى عماله في الآفاق: " أن اقضوا الدين عن الغارمين" فكتب إليه أحد عماله: بأننا نجد عند الرجل المسكن، والخادم، وله فرس، وله الأثاث في بيته، فكتب عمر: لا بد للرجل من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين"(٣).

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله كذلك عدة رسائل في قضاء الديون عن

---

(١) التوبة، آيه ٦٠.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ١٤، ص١٢١ ؛ ابن العربي: أحكام القرآن، ص٩٥٦.

(٣) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٤٥-١٦٤.

المعسرين منها رسالته إلى عامله على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن "أن انظر من أدان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه"[١]، وقرئ له كتاب آخر في مسجد الكوفة "من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله"[٢]. وكتب أيضا إلى أبي بكر بن حزم "أن كل من هلك وعليه دين لم يكن دينه في خرقة فاقض عنه دينه من بيت مال المسلمين"[٣].

وقد طالبت التشريعات الإسلامية بعدم التضييق بالطلب على المعسر والرفق به وإمهاله لعله يتمكن من تسديد ديونه مع الزمن ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ...**﴾[٤]. وعدم المطالبة بحبسه، وقد ذهب بعض الفقهاء أن حبسه إذا تأكد إعساره وعدم قدرته على الوفاء من باب التعسف في استعمال الحق[٥].

كما اتفق الفقهاء على وجوب نفقة المعسر على قريبه الموسر، وإن اختلفوا في مدى شمول هذا الوجوب لدرجات القرابة، فمنهم من وسع هذا الحق ومنهم من ضيقه ضمن دائرة صغيرة[٦].

وقد جسد الصحابة الكرام والسلف الصالح مفهوم التكافل الاجتماعي مع المعسرين أجمل تجسيد، فكانوا يخففون من مطالباتهم للمعسرين. فقد روى

---

(١) أبو عبيد: الأموال، ص٣٢٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٣٧٤.

(٣) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص٦٣.

(٤) البقرة، آية ٢٨٠.

(٥) فتحي الدريني: نظرية التعسف في استعمال الحق، ص ٢٥٧.

(٦) ابن قدامة: المغنى، جـ٧، ص٥٨٤-٥٨٦؛ الرملي: نهاية المحتاج، جـ٦، ص ٢٦٥.

الإمام مسلم في صحيحه أن الصحابي أبا قتاده – رضي الله عنه – كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج إليه فقال "ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر، وليس عندي شيء، قال: آلله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة**"(١).

وفي رواية أخرى:" من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربه من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"(٢). وفي رواية أخرى من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسرا أو يضع عنه(٣)

وروى مسلم كذلك عن أبي مسعود البدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرا، يأمر غلمانه أن يتجاوزوا

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، رقم ٣٠٠٦ (من انظر معسرا أو وضع عنه)، وانظر رواية أخرى، الترمذي في البيوع باب في إنظار المعسر رقم ١٣٠٦.

(٢) النووي: شرح صحيح مسلم ٤٥ البر والصلة باب ١٥ حديث ٢٥٨٠، جـ١، ص٢١٢، مسلم في الذكر والدعاء باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن رقم ٢٦٩٩ ؛ أبو داود في الأدب باب المعونه للمسلم رقم ٤٩٤٦.

(٣) مسلم: المساقاة، باب فضل إنظار المعسر رقم ١٥٦٣؛ ٢٦٩٩؛ أبو داود باب في المعونة للمسلم رقم ٤٩٤٦.

عن المعسر، قال تعالى: نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه، وفي رواية: قال لفتيانه تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه"[١]

خامساً: توزيع الكسوة على الفقراء

لقد كفلت الحضارة الإسلامية الفقراء في المجتمع الإسلامي وحرصت على عدم كسر أو جرح شعورهم في المناسبات العامة فحرصت على توفير الملابس المناسبة، أسوة ببقية أبناء المسلمين فانتشرت الأوقاف لهذه الغاية النبيلة في الأمصار الإسلامية، فكانت على سبيل المثال تخصص من أموال الوقف في شهر رمضان لكسوة العديد من الفقراء، كما يتم تقديم الكسوة للمحتاجين مرتين كل عام في فصل الصيف قميصا ولباسا وقبعا ونعلا، وفي فصل الشتاء مثل ذلك، ويزداد عليها جبة محشوة بالقطن، وفي بعض النصوص الوقفية إشارة إلى أن تكون الكسوة من قماش لائق مصنوعة من الحرير أو الكتان الناعم بقدر كفاية أيتام الفقراء، ويتم توزيعها على الذكور والإناث على حد سواء[٢].

وذكر صاحب روض القرطاس عن أبي سعيد بن عثمان بن يعقوب المريني (٧١٠-٧٣١هـ/١٣١٠-١٣٣٤م) أنه "لم يزل من ولايته إلى الآن يأمر بالجباب

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان، جـ٢، ص١٩، رقم ١٠٠٦-١٠٠٧ وانظر أحاديث أخرى في هذا الباب مسلم ٣٠٠٦ باب ١٨ (من انظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله)؛ ابن ماجه باب١٤ حديث ١٩٦٢-٢٤١٨، البخاري ٣٩ البيوع باب ١٨ حديث ١٩٧٢ ؛ مسلم ٢٢ المساقاة، باب ٦ حديث ١٥٦٢.

(٢) عبد الساتر الهيتي: الوقف ودوره في التنمية، ص٥.

والأكسية في زمن الشتاء والقر للضعفاء والمساكين، وأمر بمن مات من الغرباء أن يجهز ويكفن في الثياب الجديدة، ويقام بحق دفنه أحسن قيام"[١].

وكان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي أحد أعيان المغرب كان يأمر المنادي أن ينادي في البلد: ألا من احتاج إلى الكسوة فليأت اليوم الفلاني لزاوية محمد بن أبي بكر، فإذا كان ذلك اليوم اجتمع عنده من الخلائق ما لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، فيقسم عليهم الثياب حتى يصدروا عن آخرهم[٢].

أما السلطان أبو عنان المريني فكان يكسو المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمسجد بجميع بلاده[٣].

وأجرى أبو الحسن المريني على الضعفاء والشيوخ رواتب شهرية لمعاشهم وأخرى سنوية لكسائهم[٤].

وأقامت خوندتتر بنت محمد بن قلاوون الحجازية وقفا على الأيتام كانت تخصص قسما منه لكسوتي الشتاء والصيف[٥]. ونص إسماعيل بك رفعت في وقفيته التي أنشاها بالقاهرة بتاريخ ١٦/جمادى الأول ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م على تقديم كسوة للنسوة العجائز الفقيرات والمسلمات العاجزات عن الكسب الخاليات

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٤٠١.

(٢) محمد الحبيب التجكاني: الإحسان الالزامي في الاسلام وتطبيقاته في المغرب، ص٥٥٢.

(٣) ابن بطوطة: الرحله، ص٢٩٢.

(٤) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في التكافل الإجتماعي عبر عصر بني مرين، (٦٥٧-٨٦٩)، مجلة دعوة الحق، رجب ١٤٠٢هـ/مايو ١٩٨٢م، ص٢٨.

(٥) عبد البديع صقر: نساء فاضلات، ص١٢٧- ١٢٨.

من الأزواج الآئي يقمن في الرباط الذي أنشأه بباب الخلق بالقاهرة تعطى كل واحدة في شهر رمضان من كل سنة اثنا عشر ذراعا من العبك (نوع من القماش) وستة أذرع من الشاش وحردة بلدي[١].

وفي تونس وقف لمن وقع عليه زيت مصباح أو تلوث ثوبه بشيء آخر، يذهب لهذا الوقف ويشتري به ثوبا آخر[٢].

أما أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، أخت الخليفة الأموي الزاهد عمر ابن عبد العزيز فكانت رائدة من رواد الأعمال الخيرية في العصر الأموي، فقد حبب الله تعالى لها البذل والعطاء فكانت تبعث لنسائها وتكسوهن الثياب الحسنة، وتعطيهن الدنانير. وكانت تقول: جعل لكل قوم نهمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والعطاء، والله للصلة والمواساة أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع، ومن الشراب البارد على الظمأ[٣].

توزيع الخبز والسمك:

بما أن المدن شأنها في كل زمان أن تكون مكتظة بالسكان، ولا تخلو في الغالب الأعم من المعدمين أو أشباه المعدمين، نجد حكام الدولة الإسلامية وأهل الخير في الأمة يرعون هذه الفئات خاصةً في أوقات الغلاء والأزمات، ومن

(١) عبد الستار الهيتي: المرجع السابق.

(٢) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٣٦-٣٣٧، وعن وقف الملابس انظر ابن جبير، الرحلة،، ص٢٥٥.

(٣) عمر رضاكحاله: المرأة في عالمي العرب والإسلام، ج٢، ص٨٧-٨٨.

هؤلاء الحكام السلطان الظاهر بيبرس الذي أوقف أوقافا لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين، كما اعتاد أن يتصدق كل سنة بعشرة آلاف إردب قمح على المساكين.

أما السلطان المؤيد فدأب على إرسال بعض مماليكه للسؤال عن المحتاجين لسد حاجاتهم، وفي أثناء المجاعات اعتاد بعض سلاطين المماليك أن يكثروا من توزيع الأموال في سخاء على المساكين والمعدمين، كما كانوا يأمرون بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الأغنياء والأمراء، بحيث يلتزم كل منهم بإطعام عدد معين(١).

وجمع الفقراء وتوزيعهم على الأغنياء كانت فكرة عمر بن الخطاب ﷺ في عام الرمادة (١٨هـ/ ٦٣٩م) حين قال: " الحمد لله، لو أن الله لم يفرجها ما تركت أهل بيت لهم سعة، إلا أدخلت معهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحدا"(٢)، وقال في مناسبة أخرى: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة والمؤسسات الإجتماعية في الحضارة الإسلامية، ص٥٨.

(٢) البخاري: الأدب المفرد، جـ٢، ص٢٥. العيني: عمدة القارئ، مج٣، جـ٥، ص١٠١، وقال ابن حزم الظاهري وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس، وعيون المارة، انظر ابن حزم: المحلى، جـ٦، ص١٥٦.

الفقراء[١].

وفي مدينة تطوان في المغرب ما يربو على عشرين أسرة وقف أفرادها أوقافا من أجل توفير الخبز للمحتاجين صباح يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ومن هذه الأسر: العطار، واللبادي، الخطيب، الصفار، بو هلال، الشرفي... وغيرها، ويوجد في معظم المدن المغربية أوقاف من أجل الخبز الذي يوزع على المحتاجين يوميا[٢].

وقد استمر وقف الخبز في المدن المغربية حتى عام (١٣١٩ هـ/ ١٩٠١م) فقد أرسل السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ ١٥ ذو القعدة ١٣١٩هـ برسالة إلى ناظر الأحباس بالدار البيضاء: "وبعد، وصل جوابك عما أمرت به من تنفيذ الخبز للمرضى والأفاقين"[٣].

وكان السلطان أبو عنان المريني يجري الصدقة على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام، وكانت هذه الصدقة خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به على حد قول ابن بطوطة في رحلته.

وهناك في بيروت كان ما يعرف باسم وقف قفة الخبز حيث يوضع الخبز في مكان معين ويترك حتى يأخذ منه الفقير حاجته دون حرج من أحد، وقد استمر

---

(١) ابن حزم: المحلى، جـ٦، ص١٥٦.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله: معطيات الحضارة المغربية، جـ٢، ص٣٣.

(٣) الأحباس الإسلامية، ص١٧١، محمد المكي الناصري: الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، ص١٧١.

هذا الوقف في القيام بدوره حتى ٣ ربيع الآخر ١٢٥٩هـ نيسان (إبريل) ١٨٤٣م، حيث كان ينفق عليه من ريع محلات وعقارات ومخازن[١] أوقفت لهذا الغرض.

وما زالت عادة توفير الخبز للمحتاجين والفقراء جارية في الحجاز (مكة والمدينة)، وقد رأيت خلال إقامتي في مكة (١٩٧٩- ١٩٨٥م) أن الكثير من المحسنين يضعون الخبز أمام أبواب الحرم ليأخذ الفقراء حاجتهم منه كل صباح وتزيد عملية الإطعام هذه في شهر رمضان.

أما أشهر الأوقاف وأقدمها قاطبة في بلاد الشام فهو وقف تميم الداري في منطقة الخليل في فلسطين رغم أنه لم يسجل رسميا إلا سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٦م) وشمل الوقف أربعة قرى هي: الخليل، والمرطوم، وبيت عينون، وبيت إبراهيم، وبمرور الزمن أصبح الوقف يشمل ٦٠٪ من منطقة الخليل، وكان مدخول هذا الوقف يستخدم عادة في توفير الحساء والخبز وإطعام المحتاجين والمسنين في مدينة الخليل[٢].

وفي تونس وقف فريد حيث خصص لتوفير السمك للفقراء ففي بعض أيام السنة يأتي نوع من السمك تفيض به الشواطئ، لذلك خصص وقف يشترى من ريعه جانب كبير من هذا السمك ويوزع على الفقراء مجانا، وقد استمر هذا

(١) إحسان حلاق: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر، ص٢٦.

(٢) مايكل دمبر: سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين (١٩٤٨م -١٩٨٨م)، ص٢٨-٢٩.

الوقف حتى عام (١٢٥٩هـ/١٨٤٣م)[١].

ويذكر ابن بطوطة بعض فضائل أهل دمشق في الحرص على إطعام الفقراء خاصة في شهر رمضان المبارك فيقول: " أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده ألبتة، فمن كان من الأمراء أو القضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار والسوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم، أو في مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا[٢].

وجاء في ترجمة زينب بنت محمد بنت علي باشا المولودة في القاهرة (١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م) أنها كانت من المحسنات الكبيرات حيث كانت تعول في الأستانة وحدها أكثر من أربعمائة أسرة من الفقراء والمساكين[٣].

ويحدثنا التاريخ أن أول من عملت بيدها من أجل أن توفر الأموال للإنفاق على الفقراء والمساكين من سيدات الرعيل الأول هي أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- (ت٢٠هـ/٦٤١م)، إذ كانت تدبغ الجلود وتخرزها، وتبيع ما تصنعه وتتصدق به على المساكين.

وعندما أرسل إليها عمر بن الخطاب ﷺ بعطائها وزعته على الفقراء والمساكين، فقد حدثت برزة بنت رافع، فقالت: لما خرج العطاء أرسل عمر بن

---

(١) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٣٦.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص٥٦.

(٣) عمر رضا كحاله: المرأة في عالمي العرب والإسلام، جـ٢، ص١٠٧.

الخطاب ﷺ إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أدخل إليها قالت: غفر الله لعمر غيري من أخواتي كانت أقوى على قسم هذا مني. فقالوا: هذا كله لك؟ قالت: سبحان الله واستترت منه بثوب، ثم قالت: صبوه واطرحوا عليه ثوبا. ثم قالت لي: ادخلي يدك واقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان، وبني فلان من ذوي رحمها وأيتام لها، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب، فقالت برزة لها: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا المال حق، قالت زينب: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما، ثم رفعت يدها إلى السماء، فقالت: اللّٰهُمَّ لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، وتوفيت زينب في خلافة عمر وهي لم تبلغ الثالثة والخمسين من العمر، ولم تترك بعد وفاتها دينارا ولا درهما(١).

وقد أثنت عليها أم سلمة ﷺ فقالت: "كانت صالحة، صوامة، قوامة، تعمل بيدها، وتتصدق بذلك على المسلمين"(٢).

وجعلت عائشة ﷺ بعد وفاة زينب تبكي وتترحم عليها وتقول: " كانت زينب تساميني بين أزاوج النبي ﷺ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر قط خيرا في الدين وأنقى وأتقى لله عز وجل وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي يصدق به ويتقرب به إليه عز وجل..."(٣).

---

(١) عمر رضا كاله: المرأة في عالمي العرب و الإسلام، جـ٢، ص٨٥-٨٦.

(٢) أحمد عطية الله: القاموس الإسلامي، جـ٣، ص١٦٨-١٦٩.

(٣) عمر رضا كحاله: المرجع السابق، جـ٢، ص٨٦

هذا ولم تقتصر همة أهل الخير في الحضارة الإسلامية على توفير الطعام والكساء للفقراء والإنفاق عليهم بسخاء، بل سمت همة بعضهم إلى وقف الأوقاف لإدخال السرور والبهجة إلى قلوبهم عن طريق توفير أماكن لتنزههم، فمن غريب الأوقاف وأجملها ما عرف باسم قصر الفقراء الذي عمره في ربوة دمشق نور الدين زنكي، فإنه رأى بأن للأغنياء الحدائق الغناء في قصورهم فعز عليه أن لا يستمتع الفقراء مثلهم في الحياة، فعمر القصر ووقف عليه قرية داريا، وهي من أعظم قرى الغوطة وأغناها، وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي:

إن نور الدين لما رأى في البساتين قصور الأغنياء

عمر الربوة قصرا شاهقا نزهة مطلقة للفقراء[1]

سادساً: رعاية السجناء

من منطلق أن كرامة الإنسان مكفولة بنص القرآن والسنة في كل الأحوال والظروف، فقد التفتت الحضارة الإسلامية إلى حراسة حقوق السجناء ممن فقدوا حريتهم لسبب من الأسباب وغدوا لا حول لهم ولا قوة وراء القضبان، لتمتد لهم يد العطف والحنان لتخفف عنهم ثقل تقييد الحرية، ليخرجوا بعد انقضاء مدة العقوبة وهم أسوياء النفوس، يحبون مجتمعهم الذي لم ينساهم أثناء سجنهم رغم ما ارتكبوه من أخطاء واعتداء على نظم هذا المجتمع وتمردوا على قوانينه. فالإسلام الرحيم يدعو إلى بناء المجتمع على أساس المحبة والتعاون بين الأفراد،

(١) محمد بن عبد العزيز بنعبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي، جـ١، ص١٤٣.

والعطف على من ند عن القانون العام تحت لحظة ضعف، فهو لم يلفظه، بل ضم جناحه عليه ليعود من جديد لممارسة حياته، وهو يكن الاحترام لهذا المجتمع.

وقد جعلت التشريعات الإسلامية من مبدأ التكافل الجنائي مع السجين أسلوبا من أساليب تخفيف المعاناة عنه، فإذا ارتكب أحد أفراد المجتمع جريمة القتل الخطأ على سبيل المثال فإن دية القتيل تجب على عاقلته وهم أقاربه وعشيرته، وقد ثبت هذا الحكم بالسنة و الإجماع، وقد صح عنه ﷺ أنه قضى بدية المرأة المقتولة ودية جنينها على عصبة القاتلة[١].

وهذا مثال رفيع على وجوب التكافل الجنائي في المجتمع الإسلامي، لأن القاتل في حالة الخطأ ليس له مسؤولية كاملة في جريمته، لأن القصد السيء لم يتوفر فيها، فكانت المصلحة أن تشترك عشيرة القاتل في دفع الدية عنه دفعا للضرر الذي يلحقه نتيجة تصرف غير مقصود، وتأمينا لحق أهل القتيل في دية قتيلهم[٢].

وقد حرصت الدولة الإسلامية على توفير السجون[٣] المناسبة للسجناء،

---

(١) انظر تفاصيل ذلك البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، ص١٩٣، كتاب الديات، باب جنين المرأة وأن العقل على الوالد وعصبة الوالد؛ مسلم: صحيح مسلم: باب دية الجنين، حديث رقم ١٦٨١.

(٢) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ٧، ص٨٦ ؛ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، جـ٣، ص٢٠٠.

(٣) يعد الفاروق ﷺ أول من استحدث نظام السجون في الدولة الإسلامية، حيث لم يكن معروفا من قبل بشكله الذي آل إليه في عهد عمر، إذ كان في السابق يكتفى بمنع المتهم من الاختلاط بغيره، وذلك بتحديد إقامته في منزل أو مسجد، أما في عهد عمر فكان للسجن مكان محدد، إذ ⇦

فجعلت سجونا للنساء وأخرى للرجال، وجعلت سجونا للمساجين أصحاب الانحرافات الأخلاقية والعقدية، فلم يخلطوهم ببقية المساجين حتى لا يفسدوا عقائد وأخلاق المساجين الذين سجنوا لجرائم بسيطة، فقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- إلى أمراء الأحباس يوجههم قائلا: إذا حبستم أحد في دين فلا تجمعوا بينه وبين أهل الدعارات، واجعلوا للنساء حبسا على حدة، وانظروا من تجعلوه عليهم ممن تثقون بهم، ولا يرتشون. كما خصص الخليفة العباسي المهدي سجونا خاصة لأهل الزندقة حتى لا يؤثروا بأفكارهم المنحرفة على بقية المساجين(١)

كما حرصت الدولة الإسلامية على توفير الراحة للمساجين داخل سجونهم، فكانت الأوامر تصدر باستمرار من الخلفاء إلى القائمين على السجون تدعوهم للرفق بالمساجين ومعاملتهم معاملة حسنة وعدم تقييدهم إلا عند الضرورة القصوى، ومن هذا المراسيم ذلك المرسوم الذي أرسله الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عماله في حوالي السنة المائة من الهجرة جاء فيه بعدم تقييد المساجين بالسلاسل أو غيرها داخل سجونهم(٢).

.....

قام بشراء دار لصفوان بن أمية في مكة المكرمة بأربعة آلاف درهم وجعلها حبسا، انظر: السمناني، أبو القاسم علي بن محمد: روضة القضاة، وطريق النجاة، جـ١، ص١٢٧-١٢٨؛ ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية، ص١٠٣-١٠٤.

(١) لمزيد من التفاصيل عن مكافحة الدولة العباسية لحركة الزندقة انظر: شاكر مصطفى: دولة بني العباس، جـ٢، ص٢١٢-٢٣٥.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة، ص٨٥.

وأقرت أنظمة السجون في الدولة الإسلامية بتكفل الدولة بإطعام وكسوة المساجين، ولعل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ (٣٥-٤٠هـ/٦٥٥-٦٦٠م) أول من أجرى على المساجين الطعام والكسوة في الشتاء والصيف بالعراق، ثم سار على هذا النهج معاوية ﷺ في الشام، ثم فعل ذلك بقية الخلفاء من بعده[١].

وقد تطورت رعاية المساجين في العصر العباسي من خلال صدور عدد من التشريعات لصالح المساجين فيها ما قرره الفقهاء في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) بأن يخصص للمساجين عشرة دراهم في الشهر تعطى لكل سجين في يده دفعا لظلم السجان لهم أو حرمانهم إياهم من طعامهم وشرابهم[٢].

ووجه قاضي القضاه أبو يوسف عدة نصائح ثمينة في كتابه (الخراج) بشأن إصلاح السجون، فقد اقترح على هارون الرشيد إلزام الدولة بتوفير الكسوة في الصيف والشتاء للمساجين.

وقد أخذت الدولة العباسية في هذه التوصيات فأخذت تظهر في ميزانية الدولة العباسية بندا يتعلق بالمساجين، فقد جعل الخليفة المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩هـ / ٨٩٢-٩٠٢م) ألفا وخمسمائة دينار في الشهر لنفقات السجون، وثمن أقوات المحبوسين، وما يلزمهم من ماء ومؤن.

وتواصلت رعاية الدولة العباسية للمساجين، فأقرت أن من حق السجين

(١) أبو يوسف: الخراج، ص.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص٨٥.

الرعاية الصحية، فقد خصصت الدولة العباسية مجموعة من الأطباء للتردد على السجون كل يوم، وعلاج المرضى وإعطائهم ما يلزم من أدوية وأشربة استجابة لاقتراح تقدم به علي بن عيسى بن الجراح وزير الخليفة العباسي المقتدر إلى رئيس أطباء بيمارستانات بغداد سنان بن ثابت بن قرة جاء فيه " فكرت مد الله في عمرك في أمرِ مَنْ في الحبوس، إنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورنه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات (أشربة الخضر) وتقدم إليهم، وأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى، ويخرجوا عللهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى". وقد تم تنفيذ هذه التوصية[١].

ويبدو أن الدولة الإسلامية قد تنبهت إلى ضرورة إشغال أوقات المساجين بتشجيعهم على حفظ القرآن الكريم، ومن حفظه خففت عقوبته وأطلق سراحه، وكان رائد هذا التوجيه التربوي الحجاج بن يوسف الثقفي.

كما عملت الدولة العباسية على ما يبدو على تعليم المساجين بعض المهن اليدوية لشغل أوقاتهم بما هو نافع ومفيد فضلا على أن هذه المهن كانت تساعدهم عند خروجهم على كسب قوتهم من كسب أيديهم إلى جانب مساعدتهم على الاندماج في المجتمع، فقد أثر عن ابن المعتز قوله وهو في

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص١٢.

السجن:

تعلمت في السجن نسج التكك وكنت امرأ قبل حبسي ملك

وقيدت بعد ركوب الجياد وما ذاك إلا بدور الفلك[١]

ولم تقتصر اللمسات الإنسانية في الحضارة الإسلامية على المساجين على هذه التشريعات التي تضمن الرعاية الصحية، والمأكل والمشرب، والكساء، والمعاملة الحسنة بعدم تقييدهم، ودفع رواتب شهرية لهم، بل تعدتها إلى أن بعض المحسنين أوقفوا أوقافا لخدمة المساجين، فقد كان على سبيل المثال في فلسطين أوقاف من أجل توفير المداخيل لدفع الغرامات المفروضة على المعوزين السجناء[٢].

وكان في مدينة مكناس في المغرب أوقاف للمساجين عبارة عن سبع حوانيت[٣].

ونصت الست فاطمة عثمانة، وهي من أشهر المحسنات الواقفات في تونس أن يصرف من ريع وقفها ما يكفي لشراء طعام وشراب للمساجين المحبوسين في سجن القصبة[٤].

سابعاً: رعاية المسنين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٨٥.

(٢) مايكل دمبر: سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين، ص١٩.

(٣) رقية بلمقدم: أوقاف مكناس في عهد مولاي إسماعيل، جـ٢، ص٣٦٩.

(٤) عبد الستار الهيتي: الوقف ودوره في التنمية، ص.

اعتبرت هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٩٩م عاما دوليا للمسنين ودعت الجمعية العامة للأمم المتحدة للاحتفال به تحت شعار "نحو مجتمع لكل الأعمار" وهذا يعكس حجم المشكلة التي تعاني منها المجتمعات البشرية اليوم نظرا لإهمالها أجيال كانت قد خدمت أمتها، ثم منعها العجز والكبر من مواصلة عطائها للمجتمع.

لقد كان لتقديس المادة سواء في الغرب أو الشرق آثاره المدمرة على تفكيك الأسرة، وتحجر العواطف، وذبول الروح الإنسانية بين الأفراد والجماعات التي نسيت في غمرة الشره لتكديس الثروة ما قدمته الأجيال التي تقدم بها السن من خدمات وتضحيات في سالف أيامها.

إن الحضارة الإسلامية منذ بزوغ فجرها قبل خمسة عشر قرنا جعلت من ركائزها احترام كرامة الإنسان في مختلف أطواره منذ أن كان نطفة إلى أن يبلغ أرذل العمر ويعجز عن الكسب: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾[١].

وقد اعتبر الإسلام عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، فإهمال الأبوين خاصة عندما يتقدم بهم السن من السبع الموبقات المهلكات التي تهلك المجتمع قال ﷺ: "**ألا أدلكم على أكبر الكبائر**"، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "**الشرك بالله وعقوق الوالدين...** "[٢].

---

(١) الروم، آية ٥٤.

(٢) البخاري، كتاب الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر، جـ٤، ص٤٨، كتاب الشهادات، ⇦

وقد حذر القرآن الكريم الأبناء من إبداء التذمر من رعاية الوالدين في قوله تعالى ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[1].

وحذر المصطفى ﷺ العاق لوالديه بالعقاب في الدنيا والآخرة، وأن ما يفعله الولد بأبويه يجد ثمرته في معاملة أولاده له فيما بعد، فالجزاء من جنس العمل، فقال عليه الصلاة والسلام: "**ما أكرم شابا شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند ضعفه**"[2].وفي حديث آخر "**بروا آباءكم تبركم أبناؤكم**"[3].

ووجه المصطفى ﷺ الأنظار إلى أن من معالم هذا الدين البر والوفاء وترابط المجتمع وتواصل أفراده، فمن الخير العظيم إجلال الخلف للسلف والأبناء للآباء والبنات للأمهات، فهو دليل دامغ على سلامة بناء المجتمع لذا عد المصطفى ﷺ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر لما له من مؤشرات على بداية تدهور البناء الاجتماعي للأمة، فإذا تنكر الابن لمن رباه فهو من باب أولى أن

.....

باب ما قيل في شهادة الزور، جـ٢، ص١٠٢.

(١) الإسراء آية ٢٣-٢٤.

(٢) الترمذي، رقم ١٩٤٥، البر والصلة عن رسول الله، ما جاء في إجلال الكبير، وهو حسن. وانظر نحوه أحمد: المسند، جـ٥، ص٣٦.

(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد، جـ٨، ص١٣٨-١٣٩ وقال رجال ثقات؛ الهندي: كنز العمال، ٤٥٤٧٦.

يتنكر لغيره، مما يترتب عليه اختلال الأمن وضياع الأمة، لذا جاء التحذير متناسبا مع حجم الجريمة وما يترتب عليها من آثار، فقال عليه الصلاة والسلام: "**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**" ثلاثا، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...**"(١).

وهناك شبه اتفاق بين الفقهاء على أن بر الوالدين وطاعتهما فرض عين، حتى إن الإمام أحمد اعتبر أن صوم التطوع يجب أن يكون بإذن الوالدين، وأن من واجب الابن كذلك الخروج من صلاة النفل إذا سأله أحد والديه ذلك(٢).

وروى البزار في مسنده أن رجلا كان يحمل أمه يطوف بها حول الكعبة، سأل النبي ﷺ قائلا: هل أديت حقها؟ قال: "**لا، ولا زفرة واحدة**"، يعني زفرة من زفرات الطلق والمعاناة عند الوضع لم تؤد حقها.

وجاء رجل إلى الفاروق رضي الله عنه وقال: يا أمير المؤمنين، لقد بلغ بي بري بأمي أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطيا، يعني يحملها حتى تقضي حاجتها، وأعمل لها ما كانت تعمل لي في الصغر، هل وفيتها حقها؟ قال له: لا، إنها كانت تفعل ذلك وهي تتمنى لك عمرا طويلا، وأنت تفعل بها هذا وتنتظر موتها غدا أو بعد غد.

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جـ١، ص٣٠، باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٢) المقدسي شمس الدين: الآداب الشرعية والمنح المرعبة، جـ١، ص٤٩١، وانظر ص٤٨٧-٤٩٠.

واستنادا لأوامر الكتاب والسنة ضمنت الحضارة الإسلامية الحياة الكريمة للمسنين بغض النظر عن دينهم وجنسهم، وظهر ذلك بشكل عملي منذ فترة مبكرة، فها هو خالد بن الوليد ﷺ ينص في معاهدة لأهل الحيرة في العراق "وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعُيِّل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة وديار الإسلام[١].

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ يفرض ليهودي تقدم به السن عندما رآه يسأل حاجته فقال له عمر: ما أنصفناك إذ أكلنا شبيبتك وضيعناك في شيخوختك، وطلب من خازن بيت المال أن يفرض له ولضربائه من بيت مال المسلمين ما يكفيهم[٢].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته يأمرهم بتوفير حاجات الشيوخ المحتاجين من أهل الذمة من ليس لهم مال ولا أقارب ينفقون عليهم قال: "وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت المال ما يصلحه"[٣].

وفي رواية ابن سعد: "فانظر أهل الذمة، فارفق بهم، فإذا كبر الرجل منهم

(١) محمد حميدالله الحيدر أبادي: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٢٩٢

(٢) المقدسي، شمس الدين: المصدر السابق، جـ١، ص٥٧.

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة.

وليس له مال فانفق عليه، فإن كان له حميم (قريب) فأمر حميمة ينفق عليه"[١].

وقد اهتم أهل الخير من حكام ومحكومين ببناء الملاجئ لكبار السن، حيث تتم تقديم الخدمات لهم، فقد اهتم بنو مرين برعاية الشيوخ الذين لم يستطيعوا النفقة على أنفسهم، فبنيت لهم دور خاصة لإقامتهم، وهذه سنة سنّها أبو الحسن المريني في كل من فاس ومكناس ومراكش[٢] وجاء في لوحة الأوقاف على مدرسة الأندلس بفاس ما يلي: "وأمر أبو الحسن مع ذلك ببناء دار أبي حباسة للشيوخ الملازمين للصلوات بجامع الأندلس"[٣].

كذلك كانت هناك داران للشيوخ في كل من تازة ومكناس[٤] وكان أبو الحسن المريني قد أجرى على الضعفاء والشيوخ رواتب شهرية لمعاشهم وأخرى سنوية لكسائهم[٥].

أما وقف شهيداه في مكناس فقد خصص دارا لتكون مأوى للضعفاء والمشايخ من أهل حاضرة مكانس المنتسبين لجناب سيدي عبد الله بن حمد[٦].

كما كان هناك أوقاف في فلسطين لشراء الملابس، للمسنين في القرى وكل

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٨٠.

(٢) محمد المنوني: المقال السابق، ص٢٧.

(٣) المقال السابق نفسه، ص٣٠.

(٤) رقية بالمقدم: المرجع السابق، جـ١، ص٦٢.

(٥) المنوني: المقال السابق نفسه، ص٣١.

(٦) رقية بلمقدم: المرجع السابق نفسه، جـ١، ص٢٤١.وهو مؤرخ أوائل الحجة متمم عام ثلاثة ومائة ألف.

ذلك تجسيدا وتقديرا للشيوخ الذين أفنوا أعمارهم في خدمة الأمة واستجابة لتوجيهات القرآن الكريم والسنة المطهرة التي تدعو إلى رحمة الصغير والكبير "**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**".

ثامناً: تجهيز ودفن الأموات الفقراء

إن مسؤولية التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي لا تقتصر على الإنسان المسلم وهو حي، بل تتعداه إلى ما بعد مماته، فكرامة الإنسان حسب نصوص شرعنا الحنيف مصانة في الحياة وبعد الممات، فقد جعل المصطفى ﷺ من حق المسلم على المسلم السير في جنازته والتعاون على تجهيزه ودفنه إن كان فقيرا ليس له مال.

لقد تجلى مفهوم التكافل الاجتماعي مع الأموات الفقراء في الحضارة الإسلامية من خلال إنشاء أهل الخير للأوقاف للنهوض بتغسيل الموتى الفقراء وتكفينهم، ثم دفنهم بعد الصلاة عليهم، ومن أشهر هذه الأوقاف وقف "الطرحاء" الذي جعله السلطان المملوكي الظاهر بيبرس برسم تغسيل الفقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم.

وقد أطلق على هذه المؤسسات الجنائزية عدة أسماء منها: مغاسل الموتى، ومصليات الأموات، وكانت عليها أوقاف ينفق من ريعها على تجهيز الفقراء الموتى.

وكانت هذه المغاسل تتكون في العادة من عمارة كبيرة تضم مغسلا للموتى ينقسم إلى قسمين: أحدهما خاص للرجال والآخر خاص للنساء، فضلا عن مخازن لحفظ محتويات المغسل والأدوات المستخدمة في تجهيز الموتى، أما المصلاة

الملحقة بالمغسل فكان بها ميضأة بها فسقية للماء فضلا عن حوض لسقي دواب المشيعين.

وقد وجد في القاهرة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ما ينيف على الخمسة عشر من هذه المغاسل والمصليات على قول عبد الباسط بن خليل في "الروض الباسم".

وجرت العادة أن تقام هذه العمائر الجنائزية في أطراف المدن وخارج أبوابها. ومن أشهر المغاسل: المغسل الذي أقامه الأمير يشبك بن مهدي قرب مدرسة السلطان حسن بالقاهرة في طرفها الشمالي الشرقي سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٩م)، وقد أشار إليه كل من السخاوي وابن تغري بردي وابن إياس[١].

وقد خصص جانب من أوقاف مارستان سيدي فرج في مدينة فاس بالمغرب لغسل وتكفين الغرباء والفقراء من الموتى وضمان جنازة لائقة لهم.[٢]

ولا تكاد مدينة من المدن الإسلامية إلا ويوجد فيها وقف لخدمة الموتى الفقراء، وكما هو معلوم أن الفقير الميت إذا ترك ديونا ليس لها في التركة وفاء يستفيد من أموال الزكاة، وهذه قيمة التكافل الاجتماعي حيث حرصت الأمة على تبرئة ذمة الفقير حتى بعد مماته.

تاسعاً: رعاية ابن السبيل[٣]

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة، ص٥٨-٥٩.

(٢) رقية بالمقدم: أوقاف (مكناس) في عهد مولاي اسماعيل، جـ١، ص٦٣.

(٣) المراد بابن السبيل هو الذي انقطعت به الأسباب بعيدا عن بلده، فعندئذ إذ يعطى من مال ⇦

قد يتعرض المسافر (ابن السبيل) في بعض الأحيان أثناء سفره لصعوبات كثيرة: كأن ينقطع به الطرق بانتهاء أمواله التي يحملها لسبب من الأسباب، أو غير ذلك من المفاجآت التي كثيرا ما تصادف المسافر، لذلك جعل الدستور الحضاري الإسلامي من ضمن أهدافه تخفيف وعثاء السفر وألم الغربة على هذه الفئة من أبناء الأمة ممن يضربون في الأرض طلبا للرزق، أو العلم أو الحج، فألزم الدولة والأمة بتوفير الرعاية والحماية لهم حتى ولو كانوا أغنياء.

لقد جعل القرآن الكريم الإنفاق على أبناء السبيل يوازي الإنفاق على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيم**﴾ (١).

وبما أن المسافر يكون وحيدا بعيدا عن أسرته وأهله، ربط رب العزة والجلال بينه وبين اليتيم في أكثر من آية وأكد على المساواة بينهما في الرعاية والرحمة وأن الإنفاق على أبناء السبيل هو البر الحق الذي يعبر عن عمق الإيمان بالله تعالى ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ**

.....

الصدقة ولو كان غنيا في بلده انظر: ابن العربي، أحكام القرآن، جـ٢، ص٩٥٨.

(١) البقرة، آية ٢١٥.

الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

وقد اعتبرت التشريعات الحضارية الإسلامية الإنفاق على هذه الشريحة التي تقطعت بها الأسباب واجبا مفروضا على الأمة، لأنه يمثل ركيزة من ركائز التكافل الاجتماعي الذي يعبر عن روح الحضارة الإسلامية السامية يقول تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّه وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّه وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** [٢]. **وقوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾** [٣].

ومن أجل توفير الراحة للمسافرين جعلت الحضارة الإسلامية من إزالة الأذى عن الطريق قربة من القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه وشعبة من شعب الإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال "**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، أفضلها قوله لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق...)**[٤].

وفي مناسبة أخرى جعل المصطفى ﷺ من أشكال الصدقات التي يتصدق بها المسلم: إزالة الأذى عن الطريق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "**إماطة الأذى عن الطريق صدقة**"[٥].

---

(١) البقرة آية ١٧٧.

(٢) الأنفال، آية ٦٠.

(٣) الإسراء، آيه ٢٦.

(٤) الترمذي، رقم ٢٥٣٩، الإيمان عن رسول الله، ما جاء في استكمال الإيمان؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم ٢٧٩٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، جـ٦، ص٥٨٥.

وفي رواية أخرى: "**أن رجلا كان يمشي بطريق فوجد غصن شوك على الطريق فأخذه، فشكر الله له، فغفر له**"(١).

كما نبه نبي الرحمة عليه أفضل الصلاة والسلام إلى ضرورة مراعاة السلامة العامة في الطرقات، وعدم إيذاء الناس من قبل المجتازين للطرقات، أو الذين يسيرون في الأماكن المزدحمة، فعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: " **إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها، أو قال فليقبض بكفه، أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشيء**"(٢).

وانطلاقا من حرص أبناء الأمة على ربط القول بالعمل والممارسة، أخذوا يتسابقون في خدمة أبناء السبيل، وتخفيف المعاناة عنهم طمعا بالفوز بالأجر والثواب، فأوقفوا العديد من الأوقاف لصالح أبناء هذه الشريحة، فكان هناك أوقافا خاصة على سبيل المثال لرفع الحجارة من الطرقات في العديد من المدن الإسلامية في المغرب والمشرق، فكان هناك وقف رفع الحجارة في مدينة فاس في المغرب الأقصى(٣)، وآخر لخدمة الطرق ورصفها وتعديلها في دمشق التي كان يحف طرقاتها رصيفان للمشاة(٤).

ولعل سكة حديد الحجاز الممتدة من تركيا إلى المدينة المنورة من الأوقاف

(١) المصدر السابق نفسه، جـ٦، ص٥٩٢ ؛ محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان، جـ٢، ص٣٤٥ رقم١٦٨٢.

(٢)محمد فؤاد عبد الباقي: المرجع السابق، حـ٢، ص٣٤٤ رقم ١٦٨٠.

(٣) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز الحضارات السالفة، ص٣٣٧.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص٥٥.

التي ساهم فيها جمهور المسليمن من أجل توفير المعاناة على الحجاج والمسافرين في هذه البقعة الجغرافية من العالم الإسلامي[١].

ومن أجل الحرص على خدمة أبناء السبيل أثناء مسيرهم في الليل أو أثناء اجتيازهم للأنهار، نجد الدولة الإسلامية تحرص على إنارة الشوارع، وإنشاء الجسور والعبارات على الأنهار، فكانت قرطبة على سبيل المثال في عهد عبد الرحمن الناصر الأموي (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١ م) يستضيء المسافر بسرجها عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء[٢]، وكان فيها أكثر من ٢٠ ألف قنديل[٣]، وكان على نهر دجلة وحده من المعديات لتسهيل عبور الناس ثلاثون ألفا[٤].

ولعل من أبرز المخاطر التي كان يتعرض لها المسافرن لأداء فريضة الحج هو انقطاع الماء، والتعرض للمهالك عن طريق العطش، مما حدا بالأمة إلى استحداث منشآت اجتماعية وقفية هدفها تيسير الحصول على مياه الشرب للإنسان والحيوان على حد سواء على طول الطرق الرئيسة التي تربط بين الحواضر الإسلامية الكبرى، وبشكل خاص مكة المكرمة والمدينة المنورة، والقدس الشريف[٥].

---

(١) مايكل دمبر: سياسات إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين، ص١٩-٢٠.

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص١٣٣.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، في الأندلس، ص٦٠.

(٤) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص١٣٧.

(٥) أقدم من وصف القدس بالشريف يحيى بن سعيد الأنطاكي في كتابه "الذيل" الذي ألفه عام ٤٥٨هـ، فعرفت بعد بالقدس الشريف، وذكرها بهذا الوصف ابن بطوطة، ومجير الدين الحنبلي، ⇦

ويبدو أن وقف الصحابي الجليل عثمان بن عفان ﷺ لبئر رومة أول وقف مائي في حضارتنا الإسلامية في المدينة المنورة، فقد قال النبي ﷺ: "**من يشتري بئر رومة وأضمن له الجنة** " فاشتراه عثمان ﷺ وجعله وقفا دائما للمسلمين"(١).

وعن سعد بن عبادة ﷺ أنه قال: يا رسول الله، إن أم سعد ماتت فأي الصدقات أفضل؟ قال: "الماء"، فحفر بئرا وقال: هذه لأم سعد"(٢).

وبما أن مكة المكرمة بسبب موقعها بواد غير ذي زرع كانت من أكثر المدن الحجازية معاناة من شح الماء، فضلا عن أنّ عيون الماء فيها كانت مرة لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها، الأمر الذي جعل إمداد هذه المدينة بالماء بابا من أبواب القربات والبر، فتنافس الحكام والمحكومون في خدمة هذه المدينة المقدسة. ولعل السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد التي حجت عام (١٨٦هـ/٨٠٢م) و لمست بنفسها معاناة الحجيج وسكان مكة من شح الماء من أوائل من بادر لحل هذه المشكلة بشكل جذري عن طريق حفر عين زبيدة، وإيصالها إلى الحرم، وجعلها وقفا عاما، فقد أمرت خازن أموالها أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد، وقالت: اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً، فوصلوا بين منابع الماء في الجبال، وشقوا طريقا من عين حنين إلى الحرم

.....

في تاريخ القدس، سنة ٩٠١هـ، وقد ثبت العثمانيون هذه التسمية فقالوا "قدس شريف" انظر: محمد محمد حسن شراب: بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة، ص٣٧.

(١) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ٦، ص١٢٧، الزيلعي: نصب الراية، جـ٣، ص٤٧٧-٤٧٨.

(٢) أبوداود، رقم ١٤٣١، الزكاة، فضل سقي الماء.

مما خفف من عناء الحجاج من العطش[١].

وقد أثنى علماء الأمة على هذا المشروع فقال عنه الخطيب البغدادي "أسالت المياه عشرة أميال بخط الجبال وتحت الصخور حتى غلغلته من الحل إلى الحرم"[٢].

وجاء في شرح الشريشي لمقامات الحريري[٣]: حفرت العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز... ومهدت الطريق لها في كل رفع وخفض حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلا، ولها في طريق مكة من العراق آثار كثيرة في مصانع حفرتها وبرك أحدثتها تنزل وفود الحجيج عليها فلا تجد ماء إلا منها فيشربون ويسقون إبلهم، ويتزودون وهم في الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقهم، والكل داعون لزبيدة إلى زماننا هذا".

ويعد الوزير علي بن عيسى من أشهر الشخصيات البارزة التي تركت بصمات واضحة في خدمة الحجاج وأهل مكة المكرمة فقد قام في عام (٣٠٠هـ/٩١٢م) بشراء الكثير من الجمال والدواب وجعلها وقفا على حمل الماء وتوفيره لأهل مكة، كما قام بحفر بئر عظيمة، واشترى عينا غزيرة المياه بألف دينار ووسعها وقفا عاما للعامة حتى كثر الماء واتسع بمكة المكرمة.

وذكر ابن بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) في رحلته أن من أعمال البر في مصر نقل الزاد والماء للحجاج المنقطعين والمتخلفين بين مصر والشام، فكان الملك الناصر

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ١٤، ص٤٣٣.

(٢) المصدر السابق نفسه؛ عمر رضا كحاله: المرأة في عالمي العرب والاسلام، حـ٢، ص٨٨-٨٩

(٣) جـ٢، ص٦٦.

محمد بن قلاوون (٧٤٢هـ/١٣٤١م) يسير الجمال محملة بالماء والزاد إلى الحجاج المنقطعين والضعفاء، كما كان يأمر بحمل من ضعفوا عن المشي وتخلفوا بين الدربين المصري والشامي[١].

وحظيت مدينة القدس برعاية مميزة بالأوقاف الخاصة بالماء وإطعام الغرباء، لأنها مدينة مقدسة يطرقها الحجاج من الديانات الثلاث، ولعل من أشهر الأسبلة في القدس سبيل السلطان المملوكي اينال (٨٥٧-٨٦٥/١٤٥٣-١٤٦١م) الذي استمر في تقديم خدماته حتى أواخر الحكم العثماني، فقد قام بترميمه وإصلاحه كل من السلطان المملوكي قاتيباي، والسلطان العثماني عبد الحميد[٢]، كما أنشئ في عام (٩٤٣هـ/١٥٣٧م) سبيل باب السلسلة في مواجهة أحد أبواب الحرم الرئيسة، وقد خصص لسقيا سكان المدينة المقدسة والحجاج وعابري السبيل إليها[٣].

ويشير ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هـ/١٤٤٨م) أن محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ناظر الجيش (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) كان قد أسلم وتسمى محمدا، وحج عشر مرات، وزار القدس، وبنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقي الماء في الطرقات[٤].

ويؤكد ابن بطوطة أن بناء الأسبلة والخانات لخدمة المسافرين كانت ظاهرة

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص٣١.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرأة، ص٦٩.

(٣) مايكل دمبر: المرجع السابق، ص٢٥٢.

(٤) أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، ص٢٦٠.

عامة في ديار الإسلام، ويذكر أن الخانات التي مر بها ونزل فيها في الصحراء الشرقية بين مصر والشام كان بخارج كل خان ساقية لأبناء السبيل.

وكان على الطريق الذي يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخين أو ثلاثة مجموعة من القباب والخزانات مخصصة لجمع ماء المطر ليستفيد منها أبناء السبيل[١].

أما أهل سمرقند فكانت عنايتهم بماء الشرب أعظم مما عليه في البلاد الأخرى، فقد انتشرت وقوف توفير الماء بشكل ملحوظ فيروي ابن حوقل أنه قلما رأيت خانا أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء سبيل، حتى زادت عن ألفي مكان يسقى فيها الماء المسبل وعلى أشكال مختلفة، من بين سقاية مبنية، وجباب نحاس منصوبة، وقلال خزف مثبتة في الحيطان مبنية[٢].

وبلغ من شدة حرص الأمة على توفير أعذب المياه لأبناء السبيل خلال مرورهم بالحواضر المختلفة، بأن أخذوا يتنافسون في حسن عرضها وإعدادها، فكان هناك على سبيل المثال أوقافا لسقيا الماء المثلج في الصيف لعابري السبيل، وأخرى كان يمزج فيها الماء بماء الخروب الحلو أو غيره من الأشربة لإدخال البهجة والسرور في قلوب أبناء السبيل فيدعون لصاحب الوقف بالمغفرة والثواب، وهو منتهى الغاية والأمل[٣].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٦.

(٣) شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص٣٣٦.

ولا تزال عادة وقف الماء في الطرقات جارية في مختلف ديار الإسلام ولعل الذي يتجول في أحياء المدن الإسلامية القديمة (مكة، المدينة، القاهرة، دمشق، بغداد، حلب، فاس، الرباط وغيرها) يلحظ بعض أوعية الماء والبرادات أو الجرار الفخارية المملوءة بالماء في الطرقات ومكتوب عليها ماء سبيل، فضلا عن مشاهدة العديد من مباني الأسبلة الأثرية التي لا تزال قائمة في العديد من المدن والتي تشهد على شموخ الحضارة الإسلامية وهي تسترعي النظر بفنها وزخرفتها وجمال عمارتها، وما على واجهاتها من آيات قرآنية ذكر فيها الماء[١]، وهي آيات تحمل في طياتها دلالات تؤكد عمق الوازع الديني والخيري وراء إقامة مثل هذه المشاريع الخيرية.

وقد حرص الواقفون للأسبلة على أن لا يتولى إدارتها والإشراف عليها إلا من يتصف: بالأمانة، والثقة، وجمال الهيئة، ونظافة الثياب، والخلو من العاهات والأمراض متصفا بالأخلاق الرفيعة ليكون أبلغ في إدخال البهجة والسرور على المستفيدين من هذه الصدقة[٢].

ولم تقتصر الخدمات التي كفلتها الحضارة الإسلامية لأبناء السبيل على

---

(١) مثل (إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) و (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) (يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وغيرها انظر الأسبلة في القاهرة على سبيل المثال: سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة، ص٦٩. وقد بلغ عدد الساقيات بمدينة فاس على سبيل المثال في عهد يعقوب المنصور الموحدي وابنه الناصر ثمانين ساقية انظر: الجزنائي: جني زهرة الآس، ص٤٤.

(٢) عبد الستار الهيتي، المرجع السابق.

توفير المياه لهم، وتجنيبهم الهلاك عطشا بين المفاوز والحواضر الإسلامية، بل تعداه لتوفير الاستراحات والمأكل والمشرب، فيحدثنا التاريخ أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقام دورا للضيافة للمسافرين، ورصد لها الأموال، واتخذ دارا للدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه من أطعمة ليعين بها المحتاج، ووضع فيما بين مكة والمدينة وفيما بين الشام والحجاز ما يصلح من ينقطع به(١).

وهذا الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يحذو حذو الفاروق عمر رضي الله عنه في رعاية أبناء السبيل، فأكثر من بناء الخانات لإيواء المسافرين والعناية بالدواب وتبديلها، فضلا عن العديد من أحواض الشرب(٢).

وحرصت السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد على بناء الخانات والمستشفيات والقلاع لضمان سلامة وراحة المسافرين في المناطق النائية على طول امتداد الثغور في بلاد الشام. ومن أجل الحفاظ على هذه المرافق وضمان استمرار تقديم خدماتها أوقفت ضياعاً غلتها السنوية مائة ألف دينار(٣).

وعن عناية المسلمين في بلاد ما وراء النهر بأبناء السبيل يحدثنا الجغرافي المسلم ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض"(٤) بقوله: وأما سماحتهم فإن الناس

---

(١) الإسلام والحضارة أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي ٢٠ ربيع الثاني، ١٣٩٩هـ/١٨ مارس ١٩٧٩م، مج١، ص١٥٢.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحات.

(٣) أحمد خليل جمعة: نساء من التاريخ، ص٣١١.

(٤) ص٣٨٥-٣٨٦.

في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة وما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل في داره... وبحسبك أنك لا ترى صاحب ضيعة... إلا كانت همته اقتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف... فإذا حل بأهل ناحية طارق تنافسوا فيه وتنازعوه... وترى الغالب على أهل الأموال... صرف نفقاتهم إلى الرباطات، وعمارة الطرق والوقوف على سبل الجهاد ووجوه الخير، وعقد القناطر... وليس من بلد ولا منهل مطروق ولا قرية آهلة إلا وفيها من الرباطات ما يفضل عمن ينزل ممن يطرقه وبلغني أن بما وراء النهر زيادة عن عشرة آلاف رباط، وفي كثير منها إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعامه إن احتاج إلى ذلك".

ويذكر ابن حوقل كذلك أنه كان من آل الرزيان رجل مشهور بالكرم أقام رباطات، ووقف على مصالحها بقرًا سائمة، وجعل عليها عمالا يقومون برعايتها وحلبها، فيأخذون ألبانها ويقصدون بها المسافرين على الطريق العام ومعهم أنواع الأطعمة، وقد جعل في كل رباط من الأربطة مائة بقرة أو يزيد لإطعام المسافرين المرتادين للخانات على الطرق.

واشتهر في العراق رباط الشيخ محمد السكران بأنه كان مأوى للمسافرين والمحتاجين حيث كانوا يجدون المأكل والمشرب والمال، حيث كانت له رسوم في توزيع المال والطعام على الفقراء في كل عام[1].

ويحدثنا ابن جبير عن مآثر جمال الدين وزير صاحب الموصل أنه اختط المنازل في المفازات، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين، وابتنى

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرأة، ص٨٠.

بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء من أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية، فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق، كما اتخذ دارا واسعة الفناء يدعو إليها كل يوم الجفلى من الغرباء فيعمهم شبعا وريا، ويجد الصادر والوارد من أبناء السبيل في ظله عيشا هنيا، ولم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله تعالى[١].

ومن عظم إنسانية الحضارة الإسلامية أنها لم تفرق بين المسلم وغير المسلم من أبناء السبيل في النفقة والضيافة، فقد كان نبي الرحمة والعدالة والتسامح، يكرم ضيفه حتى لو كان كافرا[٢] وكان يقول عليه أفضل الصلاة والسلام: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**[٣]". وسار على هذا النهج بقية الأمة استجابة لسنته.

وقد أكد المصطفى ﷺ في أكثر من مناسبة بأن ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو دين عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه[٤]، وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: "**أيما مسلم ضاف قوما فأصبح الضيف محروما**

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم ٢٠٦٣؛ ابراهيم بن اسحاق الحربي: إكرام الضيف، ص١٤-١٥.

(٣) البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، جـ٨، ص٣٩؛ مسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم ٤٨؛ الترمذي: سنن الترمذي، رقم ٢٠٣٤.

(٤) ابن ماجه: سنن ابن ماجه رقم ٣٦٧٧؛ أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الضيافة، رقم ٣٧٥٠.

فإن على كل مسلم نصره حتى يأخذ له بقِرى ليلته من زرعه وماله"[١].

فهل رأيتم حضارة تلزم مقاضاة من لم يقم بحق الضيافة غير الحضارة الإسلامية؟ وهل رأيتم حضارة تقيم الاحتفالات ببناء الأسبلة والخانات ابتهاجا بهذا العمل الإنساني النبيل[٢] ؟.

وأخيرا حرصا من الحضارة الإسلامية على حفظ حق الطريق واستمرار صلاحيته وعدم عرقلة مسير المقيمين والمسافرين أسندت مهمة الإشراف عليه إلى المحتسب، حيث تطالعنا كتب الحسبة بالإجراءات التي اتخذها المحتسب لضمان سلامة الطرق، والتي منها على سبيل المثال جعل أرصفة على جانبي الطريق في الأسواق، وعدم السماح بإخراج البضائع خارج حدود المحال التجارية، يقول العلامة عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري، في كتابه "نهاية الرتبة في طلب الحسبة"[٣]: ينبغي أن يكون من جانبي السوق إفريزان يمشي عليها الناس في زمن الشتاء إذا لم يكن السوق مبلطا... ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي لأنه عدوان على المارة، يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس... ".

---

(١) الدارمي: سنن الدارمي، جـ٢، ص٩٨؛ ابو داود، رقم٣٧٥١.

(٢) ذكر ابن جبير ان أشهر الخانات في طريق الشام خان السلطان صلاح الدين الذي كان في وسطه، سبيل ماء، وذكر أيضا أن من عاداتهم الاحتفال ببناء الأسبلة والخانات ابتهاجا بهذا العمل انظر: ابن جبير: الرحلة، ص٢٣٣.

(٣) ص١٣.

كما أن على المحتسب منع طرح النفايات والجيف في الطرقات، كما يمنع الخضارين وغيرهم عن طرح أزبالهم في الطرق[١].

ويذكر ابن خلدون[٢] بأن من واجب المحتسب منع المضاربة في الطرقات، والحكم على أهالي المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة.

ومن أجل المحافظة على نظافة الطرقات ومنع تلوثها وتلوث الماره نجد أن المحتسب كان يلزم الخبازين شروط السلامة العامة في مخابزهم عند البناء حتى لا يؤثر الدخان على المارة، فكان يشترط في بناء المخبز أن يكون سقفه مرتفعاً، والتهوية مناسبة لإخراج الدخان[٣].

كما كان المحتسب يأمر أصحاب الميازيب بجعلها مخفية في الحائط لتجري فيها المياه، ويأمر أصحاب المجاري بحفر حفرة لرمي الأوساخ فيها[٤].

ولم تقتصر الإجراءات الوقاية لسلامة الطرق والمارة على ما تقدم، بل تعدتها إلى منع الناس من توقيف دوابهم في الطرق الضيقة أو إرسالها من غير ممسك لها، فضلا عن أمر الحدادين إلى إتخاذ ساتر ما بين الطريق ودكانه لئلا يتطاير

---

(١) نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص١٤٦.

(٢) المقدمة، جـ١، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٣) ليفي بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص٤٤.

(٤) حسان علي حلاق: الادارة المحلية الاسلامية (المحتسب)، ص٢٧.

الشرر إلى الطريق، إلى جانب منع الجلوس في الطريق لبيع السلع إذا كان للناس فيه ضرر[١]، ومنع الحطابين من وضع أحمال الحطب والتبن في الطرقات لما فيه من الضرر على السابلة[٢]، إلى جانب مراقبة إزالة القمامة من الطرقات من خلال عربات خصصت لذلك، إلى غير ذلك من الإجراءات التي انفردت بها الحضارة الإسلامية، حيث سبقت التشريعات البلدية المعاصرة بقرون، وكل ذلك من أجل توفير الظروف المناسبة لكل من سلك الطرق ليصل إلى هدفه في أسرع وقت ممكن دون أن يعكر أو يعرقل مسيره معرقل، احتراما لوقت هذا الإنسان وحرصا على سلامته.

عاشراً: رعاية الغرباء

لقد تميزت الخدمات التكافلية التي تقدمها الحضارة الإسلامية لأبناء السبيل بأنها خدمات تتصف بالاستمرارية، فإذا استقر أحد أبناء السبيل في إحدى الحواضر الإسلامية بشكل مؤقت أو دائم، وغدا غريبا نجد الأمة تقدم له كل ما تستطيع من خدمات ابتغاء الأجر والثواب يوم القيامة، فضلا عن محاولتها تخفيف آلام الغربة عنه.

ولعل المتأمل للأوقاف التي خصصت للغرباء يجد أنها كانت تهدف بشكل رئيس إلى تجسيد مفهوم الأخوة بين المسلمين، فإن ابن السبيل أينما حل في ديار الإسلام هو بين أهله وإخوته، وعليه مواصلة مشواره في خدمة وبناء حضارته،

---

(١) عمر بن محمد بن عوض السنامي: نصاب الإحتساب، ص٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٣.

(٢) الشيزري: المصدر السابق، ص١٣.

لذا عملت هذه الأوقاف على دمجهم بالمجتمع، وإحاطتهم بالرعاية والعطف، وتوفير فرصة مواصلة التعليم إن كان الغرباء من طلبة العلم، أو مساعدتهم على بلوغ الأماكن المقدسة إن كانوا خرجوا لطلب الحج، وإعانتهم بالأموال إن كانوا غارمين، فضلا عن توفير الطعام والشراب والمأوى للمحتاجين منهم.

إن أول درس عملي قدمته الحضارة الإسلامية يمثل قمة التكافل مع الغرباء ما قام به المصطفى ﷺ بعدما وصل إلى المدينة المنورة حيث آخى بين المهاجرين القادمين من مكة المكرمة والأنصار أهل المدينة المنورة، حيث ضرب الأنصار أروع الأمثلة في إكرام إخوانهم المهاجرين، وفي نفس الوقت ضرب المهاجرون أروع الأمثلة في التعفف عما في أيدي الأنصار، فكان الأنصاري يقول للمهاجري هذه نسوتي فاخْتَرْ إياهن لأطلقها لتتزوجها، وهذه أموالي أقسمها بيني وبينك، فكان رد المهاجر: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولا يأخذ شيئا، ويطلب أن يدله على السوق ليعمل فيه ليكسب قوته من عمل جبينه[1].

وكان النبي ﷺ يتمعر وجهه عندما يرى غريبا في المدينة المنورة يعاني من الجوع ورثاثة الثياب، فكان يندب الناس لمساعدته بالطعام والكساء، لأن وجود الجوعى والعراة في مجتمع من المجتمعات دون تعاطف من المجتمع يعني أن هناك خللا فيه، وأن جانب التربية الاجتماعية في هذا المجتمع بحاجة لإعادة نظر، لأن الفطرة السليمة والمجتمع المعافى من الأمراض يأبى أن يرى فيه جائعا أو

(١) انظر تفاصيل المؤاخاه، ابن هشام: السيرة النبوية جـ٢، ص١٠٩-١١١ ؛ أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٢٥٢.

عاريا، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، فجاء قوم عراة مجتابي النمار أو العباءة، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى منهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام وصلى، ثم خطب الناس فقال: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[1] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[2]، تصدق (أي ليتصدق) **رجل من دينار، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره من صاع تمره**"، حتى قال "**ولو بشق تمرة**"، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذَهّبة فقال ﷺ: "**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**"[3].

ولعل أول إشارة واضحة وردت عن اعتناء الدولة الإسلامية بالغرباء الفقراء جاءت من خلال السياق عن الحديث عن أهل الصّفّة حيث كان لهم

---

(١) سورة النساء، آية١.

(٢) سورة الحشر، آية ١٨.

(٣) مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة رقم ١٠١٧: رياض الصالحين، ص٨٠ باب سنن سنة حسنة.

مكان مخصص في نهاية المسجد، يقول النووي في شرحه على صحيح مسلم: "الصفة؛ هم الفقراء الغرباء الذين كانوا يأوون إلى مسجد النبي ﷺ وكان لهم في آخره صفّة، وهي مكان منقطع من المسجد مظلل عليه يبيتون فيه... وأصله من صفّة البيت، وهي شيء كالظلة قدامه"(١) وكان الرسول ﷺ يجري عليهم كل يوم مدّ من تمر بين رجلين(٢). ومنذ ذلك اليوم أخذ المسلمون يعتبرون العطف على الغرباء وإكرامهم شعيرة من شعائر الإسلام حتى إن الرحالة سجلوا إعجابهم بالأمصار الإسلامية في المشرق والمغرب لحرصها الشديد على الاحتفاء بالغرباء، وما كانوا يحيطونهم به من عطف ومحبة وتوفير لكل سبل الراحة، فسجلوا هذه المحامد في كتبهم لتكون شهادة خالدة تقرأها الأجيال جيلا بعد جيل ليتأسوا بها ويزيد اعتزازهم بتراثهم، فها هو الرحالة الشهير ابن بطوطة، يسجل لنا ملاحظاته عن احتفاء أهل مكة المكرمة بالغرباء والمنقطعين والمجاورين في البيت الحرام فيقول: "ولأهل مكة من الأفعال الجميلة و المكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم"(٣).

---

(١) النووي: شرح صحيح مسلم، جـ١٣، ص٤٧.

(٢) ابن حبان: صحيح ابن حبان رقم ٦٦٨٤؛ لمزيد من التفاصيل عن أهل الصفة انظر: النووي: شرح صحيح مسلم، جـ١٣، ص٤٧، ٤٩، ٧٩؛ صالح أحمد الشامي: أهل الصفة بعيدا عن الوهم والخيال، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١م.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص٧٤.

ولم يتمالك الرحالة الشهير ابن جبير نفسه من الإعجاب بمدى ما لمسه في بلاد المشرق الإسلامي من عناية بالغرباء، ولا سيما إذا كانوا من العلماء وطلاب العلم، وغيرهم ممن نزحوا عن أوطانهم هربا من الأخطار الخارجية خاصة من الغرب الإسلامي من الأندلس وشمال أفريقيا بعدما اشتد أوار الحروب الصليبية في الأندلس حيث وجد هؤلاء الغرباء رعاية مميزة في مصر والشام إبان حكم صلاح الدين الأيوبي، الذي قدم من الخدمات للغرباء ما لم يقدمه حاكم مثله آنذاك، فوفر لهم المأكل والمشرب والتعليم والعلاج، وغيرها من الخدمات التي سجلها الرحالة ابن جبير بكل إعجاب حين قال:

"ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء (الراتب) يقوم به في جميع أحواله. وقد اتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك. ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرون بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رتب أيضا فيه أقواما برسم الزيارة للمرض الذي يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهُون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم. ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا من قبله، فقد

ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة أو الكثرة، وهكذا دائما، ولهذا كله أوقاف من قبله، حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك...[١].

كما أشار ابن جبير إلى أن صلاح الدين الأيوبي خصص للغرباء من المغاربة جامع ابن طولون في مصر يسكنون ويحلقون فيه (أي يقيمون حلقات العلم) وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر... وجعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يدا لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم حكاما يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده...[٢].

أما في دمشق فقد خصص نور الدين محمود للمغاربة الغرباء زاوية المالكية بالجامع الأموي، وأوقف على ذلك أوقافا منها: طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء، وحمام ودكانان في دمشق تغل خمسمائة دينار في العام، وبعد أن أسهب الرحالة ابن جبير في وصف الرعاية التي يلقاها الغرباء في دمشق قال: "ومرافق الغرباء بهذه البلده أكثر من أن يأخذها الإحصاء لا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم"[٣].

ويتعجب ابن جبير من إكرام أهل دمشق للغرباء وأبناء السبيل وحرصهم الشديد على بذل المال والطعام لهم فيقول متعجبا: "ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء، ولا سيما أهل

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٥-١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٦-٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥٧.

باديتها، فإنك تجد من بِدَار إلى بر الضيف عجبا، كفى بـذلك شرفـا لهـا، وربمـا يعرض أحدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها، فيبكي الرجـل ويقـول: " لـو علم الله فيّ خيرا لأكل الفقير طعامي "[١].

ويواصل ابن جبير حديثه عن اللمسات الإنسانية التي سـطرها أهـل الشـام وحكام المسلمين لأجل الغرباء، فيذكر أنهم كانوا يعطون الأولية في فداء الأسرى للغرباء من المغاربة على أبناء البلد فقال: "ومـن جميـل صـنع الله تعـالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من له وصية مـن المسـلمين بهـذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينهـا في افـتكاك المغاربـة خاصـة لبعـدهم عـن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسـلمين والخـواتين مـن النسـاء وأهـل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل[٢].

وذكرَ أن نور الدين محمود كان من القادة الذين تركوا بصمات واضحة في فداء أسرى المغاربة الغرباء فلم يبخل بالأموال على ذلك، فقد أنفـق ذات مـرة اثـني عشر ألف دينار في فدائهم[٣].

وتحول العمل الاجتماعي في المغرب لصالح الغرباء إلى تيـار اجتمـاعي عام في بعض المناطق في القرن العاشر الهجري، فقد غدت هناك منـازل خاصـة يـنزل

(١) نفس المصدر السابق ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٨٠.

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة.

فيها أبناء السبيل والغرباء، وظهر لأول مرة موظفون يسألون عن الغرباء للقيام بحق ضيافتهم ونترك الحسن الوزان المعروف بليون الافريقي(ت بعد٩٥٧هـ/١٥٥٠م)[١] يحدثنا عن الحفاوة التي كان يستقبل بها الغرباء في المدن والقبائل المغربية، فيذكر أن سكان مدينة بولعون شرقي مدينة أزمور شيدوا بناية من عدة غرف لاستضافة الغرباء على نفقة السكان[٢].

ويذكر ايضا أن سكان مدينة (المْدِينة) بإقليم هسكورة شرقي مراكش قاموا ببناء دار لضيافة الغرباء[٣]. وفي مدينة تدنس (بنواحي مراكش) كان هناك ملجأ خاصاً بإيواء الفقراء وإطعامهم ويستضيفون فيه كذلك الغرباء[٤].

أما سكان تسكدلت بإقليم حاما فكانوا محل إعجاب ليون الإفريقي إذ تفوقوا على غيرهم في خدمة الغرباء فقال عنهم " فكانت لهم عادات حسنة فيما يتعلق بالكرم والمجاملة للغرباء، فقد كلفوا حراس أبواب المدينة بالاستفسار من كل غريب جاء إلى المدينة، عما إذا كان له صديق؟ فإن أجاب بالنفي كان على هؤلاء الحراس، أن يضيفوه ويستقبلوه استقبالا حسنا ولطيفا دون أن يؤدي شيئا"[٥].

---

(١) هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي أصله من غمارة ولد في قرطبة عام (٨٨٨هـ/١٤٨٨م) ثم هاجر مع اسرته إلى فاس، حيث عمل هو وأبوه في بلاد محمد الوطاسي ثم أسره الإيطاليون وقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر ولذلك سمي بليون الافريقي.

(٢) ليون الافريقي: وصف أفريقيا، ص١٢٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٨٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٧٨.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٨٢.

ولم تكن خدمة الغرباء والاحتفاء بهم حكرا على أهل الخير في الحواضر المغربية، بل تعدتها إلى التجمعات القبلية، ففي إقليم جزولة جنوبي مراكش حيث تقام سوق سنوية ابتداء من يوم الثاني عشر من ربيع الأول وتستمر شهرين، وتقصدها القبائل المجاورة، والتجار من الدول القريبة كالسنغال، ومالي، وجنوب الجزائر حيث كانت قبيلة جزولة تتعهد بإطعام جميع الغرباء في هذا السوق، يقول الحسن الوازن "سوق تستمر شهرين يقدم فيها الطعام لجميع الغرباء الذين يوجدون هناك ولو بلغ عددهم عشرة آلاف"(١).

وفي تونس كان هناك وقف للاستحمام مجانا للفقراء والغرباء، توضع فيه صرر من الدراهم كل صرة فيها مقدار الحمام، فيدخل المحتاج إلى الحمام فيدفعها بعينها ويستحم(٢).

وقد أثر عن الفقيه الشافعي عبد الملك بن محمد (ت٤٠٧هـ/ ١٠١٦م) أنه كان يكسو الفقراء العراة من الغرباء(٣)، وذكر الرحالة ابن بطوطة أن كرك نوح بالبقاع في لبنان أوقف وقفا خاصا على إطعام الصادر والوارد إلى المدينة.

ومن أجمل الأوقاف التي خصصت لأبناء السبيل والغرباء لإيناسهم وإبعاد الوحشة عنهم وقف "مؤنس الغرباء" في مدينة فاس، حيث كان هناك مجموعة من المؤذنين يحيون الليل بالمناوبة، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم،

(١) نفس المصدر السابق والصفحات.

(٢) شوقي ابو خليل، الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٣٦.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية، جـ٣، ص٢٨٣.

ويسمى هذا المؤذن مؤنس الغرباء أو مؤنس المرضى، لأن الغريب والمريض لا يقدر أن ينام في بعض الأحيان، فليس له أنيس أحسن من هذا المؤذن الذي يشجيه بصوته الجميل في تسبيح الباري تعالى في ساعات الليل الأخيرة[١].

وهكذا رأينا كيف جادت علينا حضارتنا الإسلامية بلمساتها العطوفة على هذه الشريحة من شرائح المجتمع ممن أحبت السفر فاعترضتها عوارض ألجأتها للفافة فكانت الأمة لها بالمرصاد، ترفع من معنوياتها وتقدم لها ما تحتاجه، وتدفعها لمواصلة دربها الذي أرادت أن تسلكه سواء للعلم أو الحج أو التجارة، أو المجاورة أو حب الاستطلاع، فهل رأيتم حضارة وأمة مثل هذه الأمة تجعل من خدمة المسافر والغريب شعيرة من شعائرها الدينية، وقربة من القربات التي يتقرب بها إلى الله؟ وهل رأيتم أمة يبكي أفرادها لأن الفقير رفض عطاءها؟.

الحادى عشر: رعاية الأسرى

لقد أفرد الدستور الحضاري الإسلامي في الحرب مساحة واسعة للأسرى ركزت بشكل رئيس على حفظ حقوق الأسير وصيانة كرامته، وسد كل طريق يؤدي لاستعباده واسترقاقه، وفتح الآمال أمام حريته.

ولما كان من أكبر مصادر الرق في العصور الوسطى هو استرقاق الأسرى من قِبَل مَن وقعوا بأيديهم جعل الإسلام من أولوياته سن التشريعات التي تساعد على إعادتهم إلى أصل الحرية كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً، فجاءت نصوص الكتاب والسنة الخالدة لتؤكد وتؤصل لمبدأ حفظ كرامة الأسير وضرورة التعامل

(١) شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص٣٣٧.

معه بمنتهى الشفافية والرحمة، لا بل تعدى الأمر كل ذلك إلى اعتبار الإحسان إليه وإكرامه يمثل قربة من القربات التي يتقرب بها المؤمنون إلى ربهم طمعاً بالأجر والثواب لقوله تعالى ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**﴾"[١].

وقد حفلت كتب التاريخ والسير برصد أفعال وأقوال نبي الرحمة ﷺ التي تحث الأمة على الرفق بالأسير و الحض على التنافس في برهم، فكان يقول عليه الصلاة والسلام: "**إنهم إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون**"، وقوله أيضاً "**استوصوا بالأسارى خيراً**"[٢]، وقوله: "**فكوا العاني** (أي الأسير) **وأطعموا الجائع و عودوا المريض**"[٣].

وما أن طرقت مسامع الأمة هذه التوجيهات الخالدة حتى تبارى الجميع في تسطير أجمل اللمسات الإنسانية في معاملة الأسرى حتى أخذ البعض يؤثرون أسراهم على أنفسهم. ودعونا نستمع لشهادات بعض الأسرى الذين وقعوا بعد قتال شرس بأيدي المسلمين يحدثونا عن معاملة المسلمين لهم:

أولاً: شهادة أبي عزيز بن عمير: (أخو الصحابي مصعب بن عمير)

حامل لواء المشركين يوم بدر حيث قال: "كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدم غداؤهم وعشاؤهم خصوني الخبز وأكلوا التمر،

---

(١) الإنسان، آية ٨، ٩.

(٢) ابن هشام السيرة، ج٣، ص٥٤.

(٣) البخاري، رقم ٢٨١٩، الجهاد والسير، فكاك الأسير.

ما تقع في يد رجل منهم قطعة خبز إلا نفحني بها... فأستحي، فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها"[١].

ثانياً: شهادة أبي العاص بن الربيع والوليد بن المغيرة:

وكانا من أسرى بدر، فقال أبو العاص: "كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر – والخبز معهم قليل –، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلي". وكان الوليد يقول مثل ذلك ويزيد: "وكانوا يحملوننا ويمشون"[٢].

ثالثاً: شهادة ثمامة بن آثال الحنفي سيد اليمامة:

جاء في الصحيحين أن الصحابة أتوا بثمامة أسيراً وهم لا يشعرون من هو، حتى أتوا به رسول ﷺ فعرفه وطلب منهم أن يحسنوا أسره، ثم قدم له الطعام وخصص له ناقة ذات لبن يغدى عليه بها ويراح، وكان النبي ﷺ يأتيه ويقول له: "**ما عندك يا ثمامة؟** " فيقول: عندي خير يا محمد: إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. ولما كان الغد أتاه، فقال له كما قال له بالأمس، فأجابه بمثله، وهكذا في اليوم الثالث، وما لبث النبي ﷺ أن أطلق سراحه دون شرط، عندها انطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد وأعلن إسلامه، ثم خاطب النبي ﷺ قائلاً: يا محمد،

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، جـ٤، ص٤٥٥، ؛ ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٨٢ ؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٦، ص٨٦ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، ص٣١٣.

(٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص١١٩.

والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي[١].

فانظر كيف كان أثر هذه المعاملة النبيلة الرحيمة في قلب ذلك الأسير فتحول من ألد عدو للإسلام إلى أحد كبار أنصاره.

ولم تقتصر اللمسات الإنسانية على إيثار الأسير بالطعام والشراب وحسن المعاملة بل تعدى الأمر إلى عدم تعريضه لأي ضغط نفسي أو أي موقف يجرح مشاعره، ولو كان هذا التصرف بطريق غير مقصود، فقد أنب النبي ﷺ مؤذنه الصحابي الجليل بلال بن رباح رضي الله عنه في غزوة خيبر عندما وقعت امرأتان يهوديتان في أسره، فلما أراد أن يسلمهما إلى قيادته أخذ طريقه بهما وسط الموقع الذي جرى فيه القتال بين المسلمين واليهود وسط جثث القتلى من اليهود، وما أن رأت المرأتان جثث القتلى حتى أثر ذلك في نفس إحداهما فأجهشتا بالبكاء، فلما علم نبي الرحمة ﷺ بذلك لام بلال على ذلك لوماً عنيفاً قائلاً له: "**هل نزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟!**"[٢].

وزيادة في الحرص على حفظ كرامة الأسير ومراعاة مشاعره نجد التشريعات

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، ج٥، ص٣٢٤ ؛ مسلم: الجهاد، باب ربط الأسير في المسجد برقم ١٧٦٤ ؛ ابن هشام: السيرة، ج٤، ص٢٤٥ ؛ محمد الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٢٩-٣٠.

(٢) محمد عبدالله دراز: مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، ص ٨-٩.

الإسلامية تنص على عدم جواز التفريق في الأسر بين الوالدة وولدها الصغير، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: " **لا توله والدة عن ولدها** " كما لا يجوز التفريق بين الوالد وولده الصغير، وكذلك بين الفقهاء كراهية التفريق بين الأخ وأخيه لأن النواحي الإنسانية مراعاة في الشريعة الإسلامية حتى مع أعداء هذه الشريعة(١).

وتأكيداً لتأصيل مبدأ الرفق بالأسرى تكررت التوجيهات الحضارية الإسلامية بعدم جواز قتل الأسير أو إرهابه أو تعذيبه، أو التمثيل به حتى لو كان من كبار قادة العدو، فقد رفض المصطفى ﷺ التمثيل بسهيل بن عمرو أحد سادة قريش والذي وقع في الأسر في غزوة بدر الكبرى، فقد اقترح الفاروق عمر رضي الله عنه أن تنزع ثنيتي سهيل، فيندلع لسانه، حتى لا يقوم خطيباً ضد الإسلام – وكان من كبار خطباء قريش المعدودين- ولكن نبي الرحمة رفض ذلك وقال: "**لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، ولعله يقف يا عمر موقفاً تحمده**"، إدراكاً من النبي ﷺ أن الإحسان لا يثمر إلا إحساناً، وأن الانتقام لا يثمر إلا حقداً وانتقاماً، وفعلاً تحققت نبوءة النبي ﷺ عندما ارتدت القبائل العربية، وأرادت قريش أن ترتد، فوقف سهيل بن عمرو فيها خطيباً وقال: "يا معشر قريش كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من يرتد"، فتراجعوا عن ردتهم. وهذا هو الموقف الذي بشر به النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢).

---

(١) ابن قدامة: المغني، جـ١٠، ص٤٦٧-٤٧ ؛ المجموع للنووي شرح المهذب للشيرازي، ج٩، ص٤٠٠- ٤٠٠١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٩٣.

إن قتال هؤلاء الأسرى للمسلمين قبل أسرهم لم يجمد عواطف المسلمين تجاههم، بل كانت تعاليم السماء تكبح جماح شهوة الانتقام لديهم وتدعوهم إلى الشفقة والرحمة بهم طمعا في تحويل اتجاهاتهم ومعتقداتهم لعلهم يدخلون في الإسلام ويغدون إخوة للمسلمين، وفوق هذا وذاك كان المسلمون يطلقون سراح الأسرى ممن يتضح أن لهم أوضاعا إنسانية خاصة، كأن يكون الأسير المعيل الوحيد لأسرته، فهذا الشاعر أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي كان محتاجاً ذا بنات، قال: يا محمد، لقد عرفت مالي من مال، وإني لذي حاجة وذي عيال، فامنن علي، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

من مبلغ عني الرسول محمد ... بأنك حق والمليك حميد

وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة ... لها درجات سهلة وصعود

فإنك من حاربته لمحاربٌ ... شقي ومن سالمته لسعيد

ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد النبي ﷺ، وعندما أسر مرة أخرى في غزوة أحد أمر الرسول ﷺ بقتله[1].

ولك أن تقارن بين غدر هذا المشرك الذي لا يوجه سلوكه هدي السماء مع وفاء الأسير المسلم خبيب بن عدي رضي الله عنه الذي كان ضحية غدر وخيانة بعض القبائل العربية (عضل والقارة) حيث استقر به المقام أسيراً في مكة المكرمة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٣١٣.

وأتيحت له الفرصة للغدر فلم يغدر، لأنه مسلم يعلم أن الغدر ليس من سمات المسلمين، وأن الانتقام من الأطفال ليس وسيلة مشروعة من وسائل المسلمين، وخلاصة قصته أنه بعد أن وقع في الأسر بعد حادثة بعث الرجيع[١] وكان بنو الحارث بن عامر بن نوفل قد اشتروه ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسىً من بنات الحارث استحد بها فأعارته، وغفلت عن صبي لها فجلس على فخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه. فقال خبيب: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول مارأيت أسيرا قط خيراً من خبيب[٢].

ولك أن تقارن معاملة الرسول ﷺ لأسرى قريش مع معالمة قريش لخبيب حيث صلبته وقتلته في احتفال كبير وقد تحدث خبيب عن هذا الاحتفال الدموي في قصيد رثى فيها نفسه وصور فيها مشهد قتله وصلبه فقال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع

إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمع الأعداء لي عند مضجعي

---

(١) بعث الرجيع كان في شهر صفر سنة ٤هـ، حيث حيث غدرت عضل والقارة بعشرة من الصحابة أرسلهم النبي ﷺ معهم لتعليمهم الإسلام. لمزيد من التفاصيل عن قصة مأساة الرجيع انظر: علي محمد الصلابي: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ج٢، ص٨٥٢ - ٨٥٨.

(٢) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص٣٩٩.

فـذا العـرش صـبرني على مـا يـراد بي فقد بضعوا لحـمي وقـد بـؤس مطمـعي
وقد خيروني الكفـر والـمـوت دونـه فقد ذرفـت عينـاي مـن غـير مـدمع
ولست أبالـي حيـن أقـتـل مـسـلـمـاً على أي شـق كان في الله مضـجعي
وذلـك فـي ذات الإلـه وإن يشـأ يبـارك على أوصـال شـلو ممـزع[1]

لقد كان من نتائج معاملة المصطفى ﷺ المتسامحة مع أسرى قريش وغـيرهم إسلام الكثير مـنهم حيـث عاد الأسرى إلى بلادهـم وأهلـيهم يتحـدثون عـن سماحة محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن دعوتـه ومـا فيهـا مـن الـبر والتقـوى والإصلاح والخير، وقد صدق رب العالمين حـين قـال: ﴿**هـل جـزاء الإحسـان إلا الإحسان**﴾ [2]، ورحم الله الشاعر حين قال:

أحسـن إلى النـاس تسـتعبد قلـوبهم فطالمـا اسـتعبد الإنسـان إحسـان

فانظر إلى إحسان المصطفى ﷺ لأهل مكة عندما وقعوا جميعاً أسارى بيـده بعد فتح مكة، ومنّ عليهم بأن أطلق سراحهم قـائلاً "اذهبـوا فـأنتم الطلقـاء"، حيث تحول أهل مكـة مـن أنـاس يناصـبون الإسـلام العـداء إلى قـادة للفـتح الإسلامي ينشرون العدل والسلام في ربوع الأرض.

ولعل من ثمار سياسة العفو هذه إسلام فارِس قبيلة طيء عـدي بـن حـاتم،

(١) صفي الرحمن المباركفوري: المرجع السابق، ص٢٩٢.
(٢) سورة الرحمن، آية ٥٩.

فقد خاطبت سفانة بنت حاتم الطائي التي وقعت أسيرة في يد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ذاكرة محاسن والدها، وأنه كان يكرم الضيف، ويفك الأسير، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي منّ الله عليك، قال: "**من وافدك؟**" قالت: عدي بن حاتم، قال: "**الفار من رسول الله؟**" فأطلق سراحها بعدما كساها وأعطاها نفقتها[١].

وفي رواية أنها قالت: إن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولا يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي، فلا تشمت بي أحياء العرب، فقال النبي ﷺ: "**يا جارية، هذه صفة المؤمن حقاً لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق**"[٢]. فما لبثت سفانة أن أرسلت رسالة إلى أخيها عدي الذي فر إلى الشام تطلب منه العودة والذهاب إلى محمد، فقالت: إنه كريم الأخلاق، فإن كان ملكاً فلن تظلم عنده، وإن كان نبياً فلا تتأخر عنه، وما لبث عدي أن أسلم وأصبح من قادة الفتح الإسلامي.

هذا ولم تكن سفانة وثمامة بن أثال الوحيدان اللذان منّ عليهما رسول الله ﷺ بعد أسرهما، فهناك قائمة طويلة منّ عليهم، منهم على سبيل المثال: أبو العاص ابن ربيع زوج ابنته زينب، والمطلب بن حنطب بن الحارث، والسائب بن عبيد،

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج٤، ص٣٢٩ ؛ ابن هشام: السيرة، ج٤، ص٢١١.

(٢) البيهقي: دلائل النبوة، ج٥، ص٣٤١ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٦٧-٦٨.

والزبير بن باطا، وعمرو بن سعيد وغيرهم[١].

إن معاملة الأسرى بهذه السماحة وهذه الرحمة لم يكن حكراً على فترة النبوة والصدر الأول من تاريخ الإسلام، بل هو خلق وديدن لكل قادة الإسلام في مختلف فترات تاريخنا في مشارق الأرض ومغاربها، لا يقابلون الإساءة بالإساءة، بل كانوا يقابلون الغدر بالوفاء، والبطش بالرحمة، ولنا أن نقارن تصرفات القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي مع الأسرى النصارى بمعاملة النصارى لأسرى المسلمين فقد حدثنا التاريخ عن الجرائم التي ارتكبها الصليبيون ضد أسرى المسلمين عندما احتموا بالمساجد في المدينة المقدسة حيث ارتكبوا مذبحة مروعة ضد الشيوخ والنساء والأطفال حتى سالت شوارع المدينة المقدسة بالدماء الزكية دون وخز من ضمير أو ردع من فارس أو رجل دين، وقد توالت مجازر وخيانة العهود من قبل الصليبيين، ففي ذات مرة أسر ريتشارد أحد قادة الحملات الصليبية ثلاثة آلاف مسلم وأعطاهم الأمان ثم قتلهم جميعاً[٢]. فهل قابل صلاح الدين هذا السلوك المشين بسلوك مثله ؟

لقد كان صلاح الدين الأيوبي يمثل نموذجاً راقياً من نماذج الفروسية الإسلامية النبيلة التي تعف عن الدنايا، وتترفع عن الصغائر. ولقد كانت

(١) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٠٧- ٢٧١ ؛ ج٣، ص٦٠ ؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٤، ص١٢٥؛ ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١٢١.

(٢) كانت هذه المجزرة بعد سقوط عكا على يد ريتشارد قلب الأسد. انظر: النوادر السلطانية، ص١٦٣-١٦٤.

سماحة البطل صلاح الدين سبباً في انجذاب الكثيرين من أبناء الغرب للإسلام طوعاً واختياراً، لا رهبة واقتساراً، وذلك مثل الفارس الإنجليزي "روبرت أوف سانت إليانس" الذي أسلم عام ٥٨١هـ/١١٨٥م وتزوج بعد إسلامه بإحدى حفيدات صلاح الدين الأيوبي، وفي موقعة حطين المشهورة ٥٨٣هـ/١١٨٧م هرب ستة من الجنود الأوروبيين من معسكراتهم وانضموا إلى صفوف المسلمين، وأسلموا بمحض إرادتهم واختيارهم(١).

ولا يفوتنا في هذا المبحث الإشارة إلى تلك اللمسة الإنسانية التي قدمتها سيرة صلاح الدين الأيوبي مع ملك الصليبيين ريتشارد قلب الأسد عندما علم صلاح الدين بمرضه، وأن الحمى قد أنهكته، فبادر بإرسال ما طلبه من كمثرى وخوخ وغيرها من الفواكه فضلاً عن الثلج والدواء والشراب حتى شفي خصمه ليستأنف القتال من جديد(٢). فهل سمع التاريخ بمثل هذه اللمسة الإنسانية ؟ وفي إحدى المعارك سقط "ريتشارد" مصاباً، فسارع إليه صلاح الدين وداواه بنفسه، ولم يزل يعتنى به حتى شفي من مرضه، فأطلق سراحه، فأي سماحة بعد هذه السماحة؟ بينما نرى "ريتشارد" هذا هو الذي ذبح الأسرى المسلمين في موقعة عكا مخالفاً بذلك المعاهدات الناصة على المحافظة على حياة الأسرى وحرياتهم.

ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس وأسر جموع الفرنج منّ عليهم وأطعمهم

---

(١) أحمد الشرباصي: موسوعة الفداء في الإسلام، ج٤، ص٤٦٧.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٨٣ ؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٠٣.

وكساهم وقال لهم "كنت أقدر أن أفعل بكم ما فعلتموه بالمسلمين يوم دخلتم القدس، ولكن تأبى شيمتي ذلك"(١).

ومما يروى عن حسن معاملة صلاح الدين للأسرى الصليبيين أنه وقع في أسره في شوال ٥٨٦هـ/شتاء ١١٩٠م مجموعة من أسرى الصليبيين، فعندما أحضروا إلى مجلسه، بدأ السلطان يلاطفهم ويستفسر عن أحوالهم، ويعاملهم برقة، ثم ألقى نظره على أحد كبار مقدميهم فرآه يرتجف برداً فخلع عليه فروة، ثم أمر لكل واحد من الباقين بفروة، ثم أحضر لهم طعاماً أكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت، وكان يأذن لهم في أن يراسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب(٢).

وفي عام ٥٨٧هـ/١٩٩١م حضر إلى القائد صلاح الدين الأيوبي خمسة وأربعين نفراً صليبياً من بيروت، وكان بينهم شيخ كبير السن، قد ذهبت أسنانه، وبعد سؤاله عن سبب خروجه وهو في هذا السن أطلق سراحه وأعاده راكباً على فرس إلى معسكر العدو(٣).

وبذلك استحق صلاح الدين تقدير الأجيال المسلمة والكافرة على حد سواء فقد قدم الروح الإسلامية المتسامحة في أسمى معانيها في وقت كان القتل والتنكيل بالأسرى يمثل ميزة من مميزات العصر، فكان المثال الأروع لوفاء هذا

(١) أحمد الشرباصي: المرجع السابق،، ج٤، ص٤٦٨.

(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص١٥١.

(٣) المصدر السابق نفسه: ص١٥٦.

القائد العظيم لعقيدته وحرصه الشديد على تجسيد تعليماتها قولاً وعملاً، فانفتحت له القلوب قبل الحصون والقلاع.

ويؤكد أسامة بن منقذ في كتابه "الاعتبار" أن المسلمين كانوا لا يبخلون على أعدائهم من الصليبيين بالأطباء والدواء عندما يطلبون منهم ذلك، حيث كانوا يلبون طلبهم بروح إنسانية تتسامى على العداوة والبغضاء، وما ارتكبه هؤلاء من جرائم وفظائع في بلاد الشام(١).

وتسجل الدولة العثمانية بصماتها الإنسانية الواضحة في معاملة الأسرى حيث جسد السلطان العثماني محمد الفاتح، مبادئ الرحمة التي نادت بها رسالة الإسلام، فلم تأخذه نشوة النصر عندما دخل عاصمة بيزنطة القسطنطينية في ظهيرة يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م للعبث بالمدينة، بل كانت أوامره صارمة لجنده بالرفق بأهل المدينة، حيث أمر أحد الرهبان تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، وأعلن بأن للنصارى الحرية المطلقة بممارسة شعائرهم الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين، لا بل افتدى عدداً كبيراً منهم بماله الخاص، وخاصة أمراء اليونان ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس، حيث توجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان بحفاوة بالغة وأكرمه وتناول معه الطعام(٢).

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات في العصور الوسطى، ص٤٩- ٥١.

(٢) علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية –عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص١٧٧-١٧٩.

فلا عجب بعد ذلك أن نجد المستشرق الشهير غوستاف لوبون يقول بملئ فيه: " ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل من العرب"(١).

فإذا كانت هذه اللمسات الإنسانية كانت بحق أسرى الأعداء الذين وقعوا في أيدي المسلمين، فما هي الإجراءات التي اتخذتها الدولة الإسلامية لإنقاذ من وقع من المسلمين وأهل الذمة في أسر الأعداء؟

لقد حرصت الدولة الإسلامية منذ فترة مبكرة من تاريخنا على العناية بأُسَرِ الأسرى، والحرص على فدائهم، والتواصل معهم في الأسر، ورفع معنوياتهم، وتقديم الأموال لهم وهم في الأسر، فقد كتب عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) إلى الأسارى في القسطنطينية: "أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله، بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وإني قد بعثت إليكم بخمسة دنانير، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم وذكركم وأنثاكم، وحركم ومملوككم بما سئل به فأبشروا ثم أبشروا، والسلام عليكم "(٢).

ويسجل التاريخ بأحرف من نور تسابق الأمة من حكام ومحكومين في جمع الأموال ووقف الأوقاف لصالح فكاك الأسرى من أيدي الأعداء، حيث غدا الإحسان بافتكاك الأسرى إبان أيام الحروب الصليبية سمة عامة للعالم

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٧٢.

(٢) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٤٤.

الإسلامي، ففي دمشق أيام الأيوبيين كان تجار دمشق ينفقون بسخاء نادر المثال في افتكاك الأسرى المغاربة ممن لم يكن لهم هناك أهل يقومون بافتدائهم، بل إن صدقات المسلمين بالشام ونذرهم ووصاياهم لهذه الفترة انحصرت كلها في فداء الأسرى عامة والأسرى المغاربة خاصة[١].

ولعل من أشد قادة المسلمين تحمساً لفداء الأسرى أثناء الحروب الصليبية الأمير مظفر الدين كوكبري صاحب أربيل وصهر صلاح الدين الأيوبي، فقد كان يبعث برسله مرتين في كل سنة إلى بلاد الشام ومعهم الأموال الكثيرة لتحرير الأسرى المسلمين من أيدي الصليبيين[٢] حتى أن سبط بن الجوزي[٣] يقول: إن أموال إمارته قد استنفدتها الصدقات، وقدر هذا المؤرخ عدد أسرى المسلين الذين حررهم هذا الأمير بنحو ستين ألف أسير ما بين رجل وامرأة.

ومن أوقاف دمشق الشهيرة التي خصصت لفداء الأسرى البيمارستان القيمري[٤] وما لبثت الدولة الإسلامية عندما كثرت الأوقاف الخاصة بفداء الأسرى أن أنشأت ديواناً خاصاً يختص بإدارتها[٥]، وكان هذا الديوان يختص بأسرى المسلمين وأهل الذمة على حد سواء، وكان هذا المبدأ يجسد بشكل عملي

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٢٨٠.

(٢) القزويني: آثار البلاد، ص٢٩٠.

(٣) مرآة الزمان، ج٨، ٦٨٢.

(٤) محمد كرد علي: خطط الشام، ج٦، ص ١٦٤، وانظر اوقافا أخرى في مصر لنفس الغرض: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٧٩.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١.

في كل عملية فداء للأسرى، فكان عمر بن عبد العزيز يحرص على فداء أهل الذمة[١]، وعندما أسر التتار من وقع بأيديهم من العرب، كان بينهم كثير من المسيحيين واليهود، فلما انتصر المسلمون عليهم واعتنق ملوكهم الإسلام، فكوا أسرى المسلمين واحتفظوا بالأسرى المسيحيين واليهود، فأرسل شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أمير التتار يقول: "لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم من أهل ذمتنا، ولا تدع أسيراً من المسلمين ولا من أهل الذمة " فأطلق قطلو شاه أمير التتار جميع الأسرى من المسلين وغير المسلمين[٢].

ولم يقِل حماس أهل المغرب الإسلامي عن إخوانهم من أهل المغرب في سمو إنسانيتهم وحرصهم الشديد على فداء أسراهم ممن وقع بأيدي الأوروبيين خاصة منذ أن بدأ الصراع بين المسلمين والصليبيين في الأندلس والشواطئ المغربية خاصة بعد سقوط الأندلس عام (٨٩٧هـ/١٤٩٢م)، فكان الناس على سبيل المثال يقصدون زاوية الشيخ يحي بن بكار الغمدي (ت ٩٦٠هـ/١٥٥٢م) فيتصدقون بصدقاتهم فينفقها الشيخ في وجوه البر وأكثرها في فكاك أسرى المسلمين[٣].

وقد تنافس سلاطين الدولة المرينية[٤] (٥٩١-٨٧٣هـ/١١٩٥-١٤٦٨م) في إنفاق

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٦٩.

(٢) توفيق علي وهبة: الإسلام شريعة الحياة، ص٢٠٨.

(٣) محمد الحبيب التجكاني: الإحسان الإلزامي، ص٥٤٦.

(٤) سلالة من البربر حكمت في المغرب، أسسها عبد الحق المريني على أنقاض دولة الموحدين، أشهر ملوكها أبو يوسف الذي فتح مراكش ١٢٦٩م، وأبو الحسن الذي فتح تلمسان ١٣٣٧م، نبغ في عهدهم ابن خلدون، وابن الخطيب، وابن بطوطة.

الأموال ووقف الأوقاف من أجل فكاك الأسرى، ويأتي على رأس هؤلاء السلاطين أبو فارس عبد العزيز بن العباس المريني (٧٩٦- ٧٩٩هـ/١٣٩٣-١٣٩٦)، والسلطان عبد الحق بن أبي سعيد (٨٢٣ – ٨٦٩هـ / ١٤٢٠ – ١٤٦٥م)[١].

وفي العهد الوطاسي[٢] (٨٧٧-٩٥٧هـ/١٤٧٢-١٥٥٠م) استمر الحكام يقفون الأوقاف لصالح افتكاك الأسرى، فقد وجدت حوالة حبسية تحمل رقم ٩٢١ بخزانة القرويين يوصي فيها السلطان أبو عبد الله محمد البرتغالي[٣] بأموال عقارية لافتكاك الأسرى[٤].

وكان لطلبة العلم في المغرب دور هام في جمع الأموال والتبرع بمدخراتهم لأجل افتكاك الأسرى، فهذا الطالب محمد بن أبي شاكر الدلائي يصله خبر أن لجنة من المحسنين خرجت تجمع التبرعات لافتكاك أسير على عهد السلطان زيدان بن المنصور الذهبي، فأخرج جميع ما لديه من الدراهم وكانت معدة عنده لشراء الكتب العلمية، واستلف فوقها دراهم أخرى من بعض أهل فاس،

---

(١) عبد الهادي التازي: جامع القرويين، ج٢، ص٤٥٧.

(٢) الوطاسيون سلالة مغربية من أنسباء بني مرين، استقلوا في حكم الريف الشرقي من المغرب، أول ملوكهم أبو زكريا المعروف بالشيخ (ت٩١٠هـ/١٥٠٤م) لجأ إليه أبو عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة في الأندلس. وقد قضى عليهم السعديون.

(٣) هذا السلطان أسره البرتغاليون من أصيلا وسنه سبع سنوات وقد ظل أسيراً سبع سنوات، ولذلك سمي البرتغالي، وقد حكم (٩١٠-٩٣٢هـ/١٥٠٥-١٥٢٤م). انظر: وصف افريقيا، ص٢٤٢.

(٤) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ج٢، ص٤٥٧.

فخرج إليهم ووضع الدراهم بين أيديهم[١].

وقد ساهم الفقهاء بدور بارز في تشجيع المسلمين على بذل الأموال من أجل فكاك أسارى المسلمين، لا بل أن الفقيهين أبا عبدالله الهبطي (ت٩٦٣هـ/١٥٥٥م)، وأبو القاسم بن خجو (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م) أفتيا الناس من قبائل غمارة بدفع كفاراتهم لصالح فداء الأسرى[٢].

وقد أثمرت جهود أبناء المغرب الإسلامي في فكاك ثمانية وأربعين ألف أسير سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م [٣].

لقد كانت أخلاقنا الحربية التي أثبتت مصداقيتها من خلال الأقوال والأفعال محل ثناء بعض علماء الغرب المنصفين. تقول الإيطالية لورا فيشيا فاغليري في كتابها: "دفاع عن الإسلام"[٤]: إن الإسلام ينظر إلى الحرب بوصفها حريقاً يجب أن يطفأ بأسرع ما يمكن كلما اندلعت ناره، إنه يستنكر ويحظر جميع الأعمال الحربية الوحشية، ولقد سن مجموعة من القواعد والعادات ابتغاء جعل الحرب انسانية. ويقول جوستاف لوبون[٥]: الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين مسالمين مثل العرب ولا ديناً سمحاً كدينهم.

---

(١) محمد الحبيب التجكاني: المرجع السابق، ص٥٤٧.

(٢) محمد بن عسكر الشقشاوني: دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير القرن العاشر، ص٧-١٧.

(٣) ابن زيدان: اتحاف أعلام الناس، ج٣، ص٢٥٥.

(٤) ص١١-١٢.

(٥) حضارة العرب، ص٧٢.

ومما تقدم يمكننا أن نحدد حقوق الأسير في حضارتنا الإسلامية على النحو الآتي:

١- إن الأمة الإسلامية مطالبة بالرفق بالأسير بنص الكتاب والسنة، وأن الرفق به يعد طريقا من طرق غفران الذنوب ومعلما من معالم الإيمان.

٢- إن حياة الأسير مصانة، فلا يجوز الاعتداء عليها بأي شكل من الأشكال.

٣- إن الدولة الإسلامية مكلفة بإطعام وكساء وعلاج الأسير.

٤- مراعاة الجوانب الإنسانية عند وضع الأسرى في السجون المخصصة لهم، فلا يفرق بين الأم وولدها الصغير، ولا بين الأب وولده، والأخ وأخيه.

٥- الصفح والعفو يجب أن يكون معلماً بارزاً في معاملات قادة الدولة الإسلامية مع أعدائهم، خاصة العفو والصفح عن النساء والأطفال وكبار السن.

٦- عدم التمثيل بالأسرى أو تعذيبهم، لأن ذلك غير جائز في شريعة الإسلام.

أما بالنسبة لأسرى المسلمين عند الأعداء فمن أبرز حقوقهم على المسلمين:

١- كفالة أطفالهم وأهلهم بالإنفاق عليهم وتولي رعايتهم.

٢- العمل على فدائهم، فإن لم تكف الأموال المدخرة في بيت مال المسلمين فعلى الأمة جمع الأموال لهذا الهدف.

٣- وقف الأوقاف وتشجيع الأمة على ذلك من أجل تحرير أبناء المسلمين من

الأسر.

٤- مراسلتهم إن أمكن ذلك ورفع معنوياتهم وإرسال الأموال لهم.

٥- إنشاء دائرة خاصة بالأسرى لمتابعة شؤونهم والعمل على افتكاكهم.

٦- على الأسير المسلم أن يتخلق بأخلاق الإسلام أثناء أسره، فلا يغدر ولا يخون، ولعل في قصة خبيب بن عدي خير مثال على نبل وسمو هذه الأخلاق.

٧- إن من حق الأسير المسلم والذمي على حد سواء أن تسعى الدولة لافتدائهم وإطلاق سراحهم دون أدنى تفريق بين الطرفين.

وهكذا رأينا دستور الرحمة الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية يكفل للأسير كرامته، ويعمل بكل جهده على إنقاذه بالفداء بإنفاق الأموال بسخاء فداء للحرية، وكرامة الإنسان التي جاهدت الحضارة الإسلامية من أجل صيانتها، وإقامة سياج حولها لحراستها من التعسف والظلم خاصة في أوقات الحروب والأزمات.

فهذه سماحة حضارتنا مع الأسير، وهذه أخبارنا مسطورة في الكتب، يشهد بسموها العدو والصديق، فهل يستطيع دعاة الحرية والديمقراطية والمساواة اليوم أن يقدموا لنا غير الاختراعات المبهرة التي ابتكروها لإذلال الأسير وانتزاع الاعترافات منه...!؟

الخاتمة:

أيها العلماء الأفاضل، بعد هذه الرحلة في رحاب إنسانية حضارتنا الإسلامية ولمساتها الحانية على الفئات الضعيفة في المجتمع يمكننا أن نخرج بالنتائج الآتية:

أولاً: إن جوهر الحضارة الإسلامية يقوم على الرحمة والرفق والعدالة والمساواة، ذلك الجوهر الذي يستمد تألقه من نصوص واضحة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، تلك النصوص التي تم إنزالها على الواقع سلوكاً وممارسة لتشكل وتصنع الحضارة الإسلامية بكل أبعادها التي جعلت منها محل إعجاب العدو والصديق على حد سواء، لما تملكه من قيم وركائز لصيانة كرامة الإنسان، واحترام حقوقه وحرية اختياره، فضلاً عن اجتيازها لكل الاختبارات التي مرت بها هذه الحضارة عبر الزمان فلم تغير جوهرها ولم تتنكر لمبادئها.

ثانياً: إن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة في تاريخ البشرية التي قدمت برنامجاً شمولياً لرعاية الضعفاء وأصحاب العاهات منذ اليوم الأول لبزوغ فجرها، حيث جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واضحة جلية في إلزام الأمة برعايتها والأخذ بيدها ودمجها في المجتمع.

ثالثا: إن المؤسسات الخيرية التي أنشأها الحكام وأهل الخير على مر فترات تاريخنا قامت بدور مشرف في خدمة الشرائح الضعيفة وخففت من معاناتها، وهذه المؤسسات تشكل قدم السبق للحضارة الإسلامية في مجال العمل الاجتماعي المؤسسي الموجه والمحدد الأهداف.

رابعا: كان لسيدات المجتمع في الحضارة الإسلامية دور بارز في دفع العمل

المؤسسي لصالح الشرائح الضعيفة في المجتمع، حيث تمكن من بلورة مفهوم العمل التطوعي بشكل عملي عندما تنادين لإنشاء الأسواق الخيرية لدفع ريعها لصالح تلك الفئات، ولعل زوجات الخلفاء والأمراء كن في طليعة سيدات المجتمع الإسلامي اللواتي تركن بصمات واضحة في تطوير العمل الاجتماعي لصالح هذه الفئات.

خامسا: إن رعاية اللقطاء في الحضارة الإسلامية رعاية شمولية، يعد نقطة تحول في تاريخ الإنسانية ومعلما من معالم تكريم الإنسان في الحضارة الإسلامية، حيث كانت هذه الشريحة قبل بزوغ فجر الإسلام تجد نفسها لا محالة مسلوبة الحرية والإرادة، تعيش في سلّم اجتماعي متدن، همها وهدفها خدمة السيد الذي استرقّها، فجاءت رسالة الإسلام لصيانة الكرامة الإنسانية، حيث أعلنت عدم جواز أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان لأي سبب من الأسباب، ولعل المتأمل لكتب الفقه والحسبة يقدر ما قدمته الحضارة من رعاية لا توجد في حضارتنا اليوم.

سادسا: إن من نتائج الرعاية الشمولية للفئات الضعيفة بروز هذا العدد الضخم من المبدعين من مختلف شرائح هذه الفئات في مختلف فنون المعرفة، وبالتالي ساهموا مساهمة فاعلة في دفع المسيرة الحضارية للأمة، ولعل المتأمل لكتب التراجم والتراث بشكل عام يلحظ ما حظيت به هذه الفئات من عناية وتكريم من خلال رصدها لآلاف المبدعين منها والاحتفاء بهم وفتح الوظائف العامة أمامهم وتقديمهم في المحافل العامة تقديراً لكفاءاتهم.

سابعا: إن رعاية الدولة الإسلامية للمجانين وأصحاب الأمراض المزمنة ليس

له نظير حتى في حضارتنا اليوم، فانظر لحضارة تعين لكل مجنون خادمين يخدمانه، ويروحان عنه، ويسمعانه ما يلذ به سمعه، ويبدلان ملابسه في كل يوم مرتين!

ثامنا: إن الحضارة الإسلامية هي حضارة للإنسان بإطلاقه، حضارة جاءت هادمة للعنصرية لاغية للطبقية، "**لا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى**".

إنها حضارة تدعو إلى الخير ووقف الأموال لصالح الفقراء ومصالح الأمة.

إنها حضارة تدفع جوائز مالية لمن يدل على فعل الخير أو رد المظالم أو إصلاح شأن من شؤون الأمة فقد كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى أهل الموسم (الحج) أما بعد: "فأيما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة وبعد الشقة..."[١].

وهي الحضارة الوحيدة التي فرضت ضرائب مقدرة للفقراء في أموال الأغنياء.

إنها حضارة تؤكد على أن رقي الأمم لا يقاس بقدر ما تكتنزه من أموال وثروة مادية فحسب، بل بقدر ما لديها من رصيد أخلاقي يجعل من هذه الثروة وسيلة من وسائل سعادة جميع شرائح المجتمع، لأن إهمال مبدأ التكافل والعناية بالفئات الضعيفة يؤدي لا محالة إلى احتقانات وأزمات على مختلف المستويات الاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية، والأمنية.

---

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٢١-١٢٢.

وكم نحن اليوم بأمس الحاجة لإحياء العديد من الأوقاف الخيرية لمحاربة الفقر وسد حاجات أبناء المسلمين، ومن هذه الأوقاف الجديرة بالأحياء وقف إعارة الحلي والملابس للعروس الفقيرة، ووقف إعارة الأواني في الأحياء الفقيرة، ووقف تجهيز ودفن الأموات الفقراء، ووقف رعاية الأرامل والمطلقات ممن تقطعت بهن الأسباب وليس لهن أرحام، فضلا عن الأوقاف المتعلقة بالطلبة الفقراء وإعادة تأهيل المدمنين على المخدرات والمساجين، إلى جانب إحياء الأوقاف المتعلقة بالمسلمين الجدد.

لقد آن الأوان أن نعيد النظر في البناء الفكري والفني لمناهجنا لنجعلها أكثر أصالة ومعاصرة، مناهج تبعث روح الاعتزاز وتصنع قادة متنورين في مختلف الحقول والمجالات، قادة يدركون بأن النظام العالمي الجديد لا يرحم الضعفاء، فضلا عن أن سيل العولمة الجارف سوف يطمس الهوية، ويلغي الخصوصية لكل أمة لا تطور مناهجها وتحصن أجيالها على أسس علمية متينة، وسياسات تربوية رشيدة، فمتى نجحنا في بناء مناهجنا المبدعة المنطلقة من ثوابتنا والمواكبة لتطورات عصرنا، وأعددنا من يطبقها بعين مبصرة على كل مراحل التعليم نكون قد بدأنا أول ميل على طريق النهضة والتقدم.

وأخيرا فإن المحاضر يردد مع القائل:

وقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ.د سلامة محمد البلوي

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية – جامعة الشارقة

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المقدمة: ٥
أولاً: رعاية الحضارة الإسلامية للمرأة..... ١٣
أ- تزويج وتجهيز البنات الفقيرات ١٨
ب: رعاية الأرامل ٢٢
ثانيا: رعاية الطفولة المحرومة..... ٢٩
رعاية اللقطاء..... ٢٩
ثالثاً: رعاية ذوي العاهات والأمراض المزمنة..... ٤١
أ- رعاية ذوي العاهات: ٤١
ب- رعاية المجانين وأصحاب الأمراض المزمنة: ٥٤
جـ - أصحاب الأمراض المزمنة والخطيرة:..... ٥٨
رابعاً: قضاء الدين عن الغارمين..... ٦٢
خامساً: توزيع الكسوة على الفقراء ٦٦
توزيع الخبز والسمك:..... ٦٨
سادساً: رعاية السجناء..... ٧٤
سابعاً: رعاية المسنين ٧٩
ثامناً: تجهيز ودفن الأموات الفقراء..... ٨٥
تاسعاً: رعاية ابن السبيل..... ٨٦
عاشراً: رعاية الغرباء ١٠١
الحادي عشر: رعاية الأسرى..... ١١٠
الخاتمة:..... ١٣٠